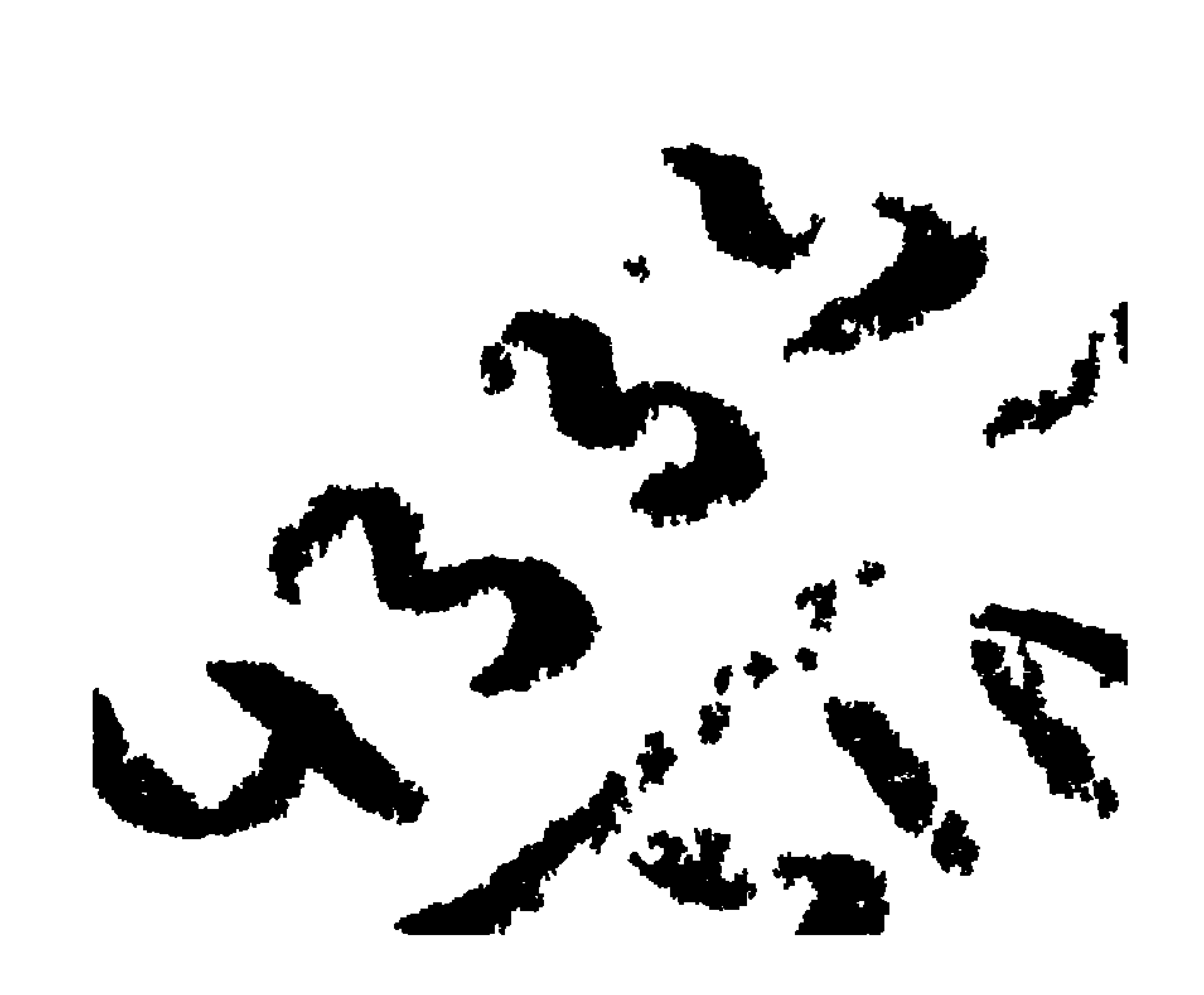


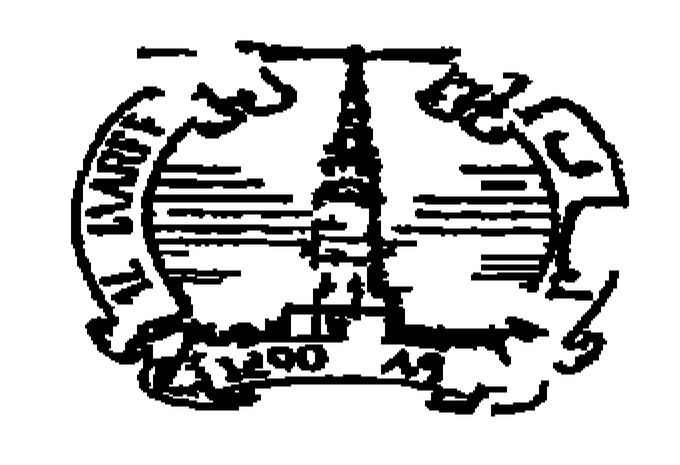
حسن محمود

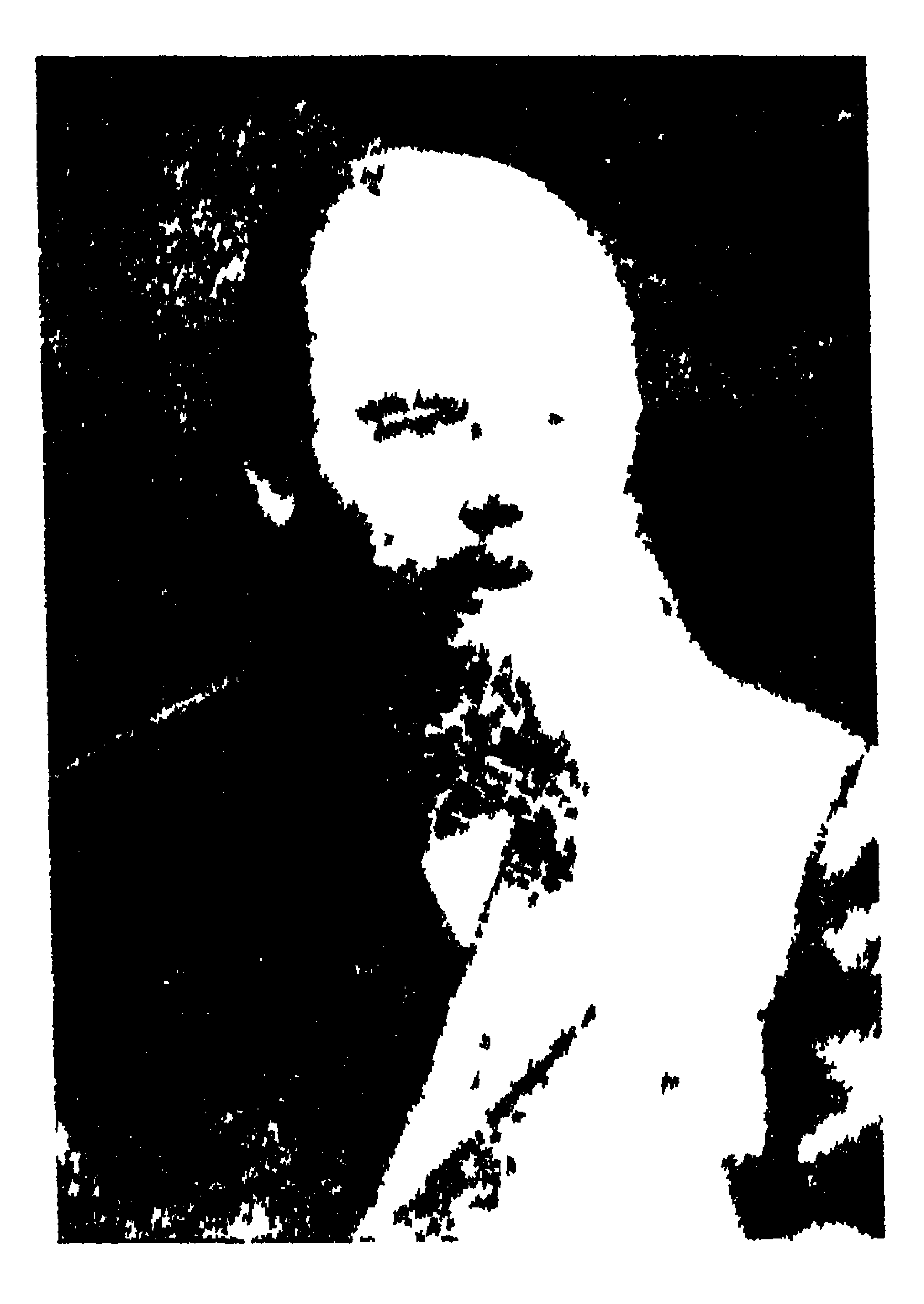
دستويفسكى

حياة المضطربة

اقرأ ٥

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وانطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





« فیدور دستویسکی »

تمهيـــــد

ما انقضت سنوات ثلاث على بداية الحرب العالمية الأولى حتى أدهشت روسيا العالم ، إذ ألقت سلاحها فجأة ، واتخذت نظاماً سياسياً ، كان الناس ينظرون إليه من قبل ، على أنه وليد نزعة من نزعات الخيال ، تأثرت بها عقول مفكرة ، تألمت لشقاء العـالم وطغيان المادة ، وتسخير الملايين من البشر ، لرغبة المئات القلائل الذين تيسرت لهم أسباب الرخاء .

لم يكن الأوربيون يعتبرون روسيا حتى ذلك العصر جزءاً من أوربا ، بل كانوا يميلون إلى اعتبارها بمعزل عن الحضارة الأوربية . أو هي على الأقل في مستوى من الحضارة أقل من مستوى غيرها من الأمم ، فهي على اتساع أرضها وغناها الطبيعي لم تستطع استثمار ثروتها ، وهي إن تكن قوية بعـدد سكانها وشجاعتهم وقوتهم الجسدية التي لم تنهكها زخارف المدنية إلا أن السواد الأعظم من أهلها ألف الطاعة للنظام الذي يدعمه القيصر والكنيسة ، وليست روسيا من البلاد التي تغلغلت فيها الحياة الصناعية ،

حتى بلغ فيها شقاء العمال حداً لا يطاق ، وأهلها معروفون بأنهم على ما بهم من كفاف يقنعون بالقليل و يقبلون حكم القضاء . والهزيمة فى تلك الحرب لا تفسر هذا الانقلاب ، فقد هزمت روسيا من قبل ولكنها تعرف دائماً أن هزيمتها لن تكون ساحقة ، لذلك كانت دهشة الناس عظيمة ، وكان لهذا التبدل وجيب فى العالم الأوربى وسرت فى أركانه رغبة شديدة إلى استطلاع كنه ما حدث فى تلك البلاد ، وأقبل الأوربيون فى نهم على ما أخرجته عقول أبناء الروس فى ميادين الأدب والفن والعلم ليزنوا أمور روسيا على حقيقتها و يعرفوا هل كانت ثورتها مجرد اندفاع طائش أو هياج نفس وحشية أم هى سورة غضب أمة مفكرة مضطهدة .

أقبل الأوربيون على ما فى أيديهم من كتب روسية منقولة إلى لغاتهم، وأقبلوا يستمعون الى الموسيقى الروسية و يتذوقون الفن الروسى فى المسارح، و إذا هم أمام فن رائع وأدب عظيم ، و إذا العالم ينغمس فى الأدب والفن الروسى، و إذا الأمم جميعها غالبة ومغلوبة تقبل على هذا الأدب الجديد .

سرت هذه الموجة من الغرب وانتقلت إلى الشرق فتلقاه فى هـذه البلاد « مصر » جماعة من الشبان الناشئين يؤمنون

بالحضارة الأوربية كل الإيمان ويعيشون بعقل أوربى ، فأقبلوا على مؤلفات جوجول ودستويفسكى وتلستوى وشيهوف، واستمعوا إلى موسيقى تشايكوفسكى ومسورجسكى ورمسكى كورسا كوف ، وحضروا مشاهد بافلوفا ورواياتها الراقصة ، فتفتحت أمام أعينهم أجواء جديدة لم يكونوا يعرفونها ، وراحوا يستزيدون من وحى روسيا بكل وسيلة حتى فى الأمور البسيطة ، فهم يبحثون فى أنحاء القاهرة والاسكندرية ليتذوقوا « الكفاس » و « والفودكا » تلك المشروبات الروسية التى قرأوا اسمها ويرتادون المطاعم الروسية ليذوقوا الطعام الذى يأكله أبطال القصص الروسية .

هذا الكتاب الذى وضعه اليوم أحد أولئك الشبان الناشئين عندئذ هو ذكرى لتلك الأيام الخوالى أكثر منه نتيجة اهتمام مقيم بالأدب الروسى ، وإذا استطاع هذا الكتاب أن يبعث فى نفوس قرائه شوقا إلى قراءة أحد مؤلفات دستويفسكى أو غيره من الكتاب الروسيين فقد أدى مهمته .

لم يكن اختيار ترجمة حياة « دستويفسكى » لهذه السلسلة وليد مصادفة بل هو نتيجة درس وتفكير ، فالأدب الروسى يتمثل لدى سواد الأوربيين فى كاتبين عظيمين من كتاب القرن التاسع

عشر: هما دستويفسكى الذى توفى سنة ١٨٨١ ، وتولستوى الذى توفى سنة ١٩١٠ ، والأول منهما هو أكبر الروائيين الروس فى القصة الطويلة المليئة بالتقلبات النفسية الفياضة بالخيال الخصب ، والثانى منهما هو روائى عظيم ولكنه أيضاً مصلح اجتماعى . وقصة حياة الرجلين عنيفة متقلبة مضطربة نتيجة لاندفاعهما وهما من عصر واحد وإن امتد الأجل بالغنى المترف إلى السنوات الأولى من القرن العشرين . أما غيرهما من أدباء الروس الذين لهم أثر فى أدباء الغرب حتى هذا العصر مثل جوجول الروائى الذى توفى سنة ١٨٥٢ وترجنيف الذى توفى سنة ١٨٨٣ ، وأكبر مؤلفى القصة القصيرة شيهوف المتوفى سنة ١٩٠٤ ، ففنهم ذائع لدى الأدباء ولكنه أقل انتشاراً لدى الجمهور .

اخترنا من بين الاثنين دستويفسكى لأننا نعتقد أن لأدبه تأثيراً كبيراً فى فن أشهر الكتاب المعاصرين من الأوربيين، وسواء صح هذا الاعتقاد أم لم يصح فقد رأينا رسم صورة دستويفسكى ابن الشعب بفضائله ونقائصه وجهوده قبل صورة تولستوى السيد الذى ولد فى أحضان الجاه ولكنه اختار حياة الفلاح وإن كانت الصورة الثانية لا تقل إبداعاً عن الصورة الأولى .

وفى هذا الوقت الذى وضعنا فيه هذا الكتاب — أى فى سنة ١٩٤٣ بعد ميلاد السيد المسيح — تمر روسيا بمحنة، وتظهر جلداً وإقداماً عظيمين يدلان، مهما كانت النتائج، على أن تلك البلاد العظيمة كالمارد الذى تتكلم عنه خرافات طفولتنا لا يموت أبداً، وإذا سقط إلى الأرض انتصب على قدميه أقوى مما كان أضعافاً ؟

حسن محمود

١

الخطوة الأولى

كانت مدينة بطرس الأكبر فى القرن التاسع عشر محط أنظار الشبيبة فى جميع أنحاء الامبراطورية الروسية أو محط أنظار آبائهم . والآباء سواء أكانوا من رجال الإدارة المدنية أم إدارة الحرب أم كانوا من أصحاب الأراضى الواسعة أو الضيقة إذا ما فكروا فى مستقبل أبنائهم بدا لهم شبح هـذه المدينة يتلألأ فى جو هذا المستقبل ويبشر بالآمال لأبنائهم ، فهم يعملون على أن يتم الأبناء دروسهم فى تلك المدينة إذا كانوا من الموسرين . لذلك أرسل الطبيب ميخائيل دستويفسكى ولدين من أولاده فى الأشهر الأولى من سنة ١٨٣٧ لكى يدرسا دراسة عالية تعدهما مهنة تؤهلهما لكسب الرابح . ومن الطبيعى أن الأب لم يفكر فى غير مهنتين ، إما الطب وإما الهندسة حيث يكون لهما مركز فى الجيش وفى الإدارة المدنية ، ويكون فى الطريق أمامهما متسع لمراتب الشرف . وهو يرمى بذلك إلى أن يحققا ما فشل هو فيه فى

حياته لأنه هو أيضاً عند ما درس الطب فى صغره كان شاباً ذا مطامح ولكن هذه المطامح لم تتحقق ، وانتهت به الحياة إلى أن صار مجرد طبيب للملجأ للفقراء فى ضاحية من ضواحى موسكو . نعم إنه استطاع أن يجمع بعض المال بالتقتير الشديد على نفسه وعلى أولاده ، واستطاع أن يشترى ضيعة صغيرة فى مقاطعة « تولا » وأن يعد نفسه من ذوى الأملاك والضيعات ، ولكن هل هذه هى الحياة التى طمح إليها أو فكر فيها فى زهرة شبابه ؟

حقا لم تكن الحياة رفيقة بهذا الطبيب ولم يكن هو بها رفيقا ، فقد أكسبه تبرمه بها غلظة وقسوة ، فكان يعامل مرضاه وأهل بيته معاملة جافة ، وسيق إليه الحظ امرأة وديعة تزوج منها فوجد مجالا آخر للاستبداد ، وقاست هذه الزوجة منه هوالا حتى أصيبت بمرض صدرى قضى على حياتها فى الأشهر الأولى من السنة التى انتقل فيها الأخوان إلى مدينة بطرس الأكبر . أما الأب فقد ظل فى ضيعته وحيداً وأدمن الخمر ، وبعد بضع سنوات من التاريخ الذى ذكرناه بلغت قسوته على فلاحيه حداً يقرب من الجنون حتى إن أحد الفلاحين لم يتملك نفسه فضربه بفأس أودى بحياته .

قدم الغلامان إلى مدينة بطرس الأكبر كآلاف من الغلمان

أمثالهما وكان أكبرهما «ميخائيل» فى السابعة عشرة من عمره والأصغر «فيدور» فى السادسة عشرة إذ أنه مولود فى الثلاثين من اكتوبر سنة ١٨٢١ . ودخلا مدرسة إعدادية كى يتمكنا من الالتحاق بكلية الهندسة الحربية وتقدما لامتحان الدخول فلم ينجح الأكبر ونجح الأصغر فى الالتحاق بها .

صار « فيدور » طالباً بكلية الهندسة الحربية وكان متوسط القامة مليئاً بعض الشيء أشقر الشعر ذا وجه ممتقع اللون ، وكان فتى متحفظاً كتوماً خالياً من اندفاع الشباب وصراحة الشباب ، قليل الإقبال على الرفقاء بعيداً عن وسائل التسلية التى يقبل عليها زملاؤه . يفضل قضاء أوقات فراغه وحيداً منقطعاً إلى أفكاره أو متصفحاً الكتب . وكانت قراءاته أدبية ، فقد أكب منذ طفولته على دراسة الآداب الأوربية فى شغف واهتمام ، حتى صار واسع الاطلاع فيها . وكان فى ذلك الوقت شديد الإعجاب بمؤلفات « هوجو » و « بلزاك » أما الكتب المدرسية فيتركها تنتظر أن يحين الامتحان فيقبل على دروسه لينال نصيبه فى النجاح ، لا يطمح فى التقدم على زملائه .

مضى فيدور دستويفسكى خمس سنوات فى هذه الدراسة

ثم خرج إلى الحياة بعد أن رقى فى الكلية إلى رتبة الملازم الثانى . على أن العمل لديه كان مجرد وسيلة لكسب قوته لأن جميع ميوله متجهة نحو الأدب وحياة الأدب ، لذلك نراه يترجم بعض قصص « بلزاك » و« جورج ساند » و« سو » ويؤلف أو يحاول أن يؤلف قصصا وروايات تمثيلية . وفى هذه الأثناء رقى إلى درجة الملازم الأول . لكننا لا نلبث أن نراه فى سنة ١٨٤٤ قد أقيل من عمله بسبب المرض ، ولكن الحقيقة أنه أقيل إذ لم يرغب فى الانتقال إلى الأقاليم . وهكذا بدأ حياة الشقاء أو حياة الحرية كما كان يقول.

هل هى حياة الحرية حقاً ؟ أو هو كان يحلم كما حلم غيره من مفكرى الروس فى ذلك العصر بمركز الأديب وحريته فى بلاد الغرب ؟ لم تكن روسيا فى ذلك العصر — وربما لم تصر حتى الآن — جزءا من أوربا فى حياتها الفكرية . فإذا كان « بلزاك » و « هوجو » نالهما النصيب الأوفر من عبادة الجماهير الفرنسية . وإذا كان « جيته » و « شيللر » نالا الشىء الكثير من تقدير الأمراء والعامة فى ألمانيا فإن حظ الأديب أو المفكر الروسى لم يكن مما يغبط عليه ، فالحكومة القيصرية لم تك تنظر إلى أحد فى خوف وكراهية مثل نظرتها إلى الأديب والمفكر ، ومع ذلك كان

القرن التاسع عشر فى روسيا من أغنى عصورها بالمفكرين والأدباء وإن كان قرين أكثرهم فى الحياة العوز والشقاء .

سكن دستويفسكى فى ذلك الوقت مع صـــديق له هو « جريجورفتش » عرفه فى كلية الهندسة الحربية فاتخذا مسكنا صغيراً . ولم يكن دخلهما غير مئة روبل فى الشهر وهو دخل كاف لشابين فى سنهما، ولكنهما لا يعرفان التدبير فلا يأتى نصف الشهر حتى تنتهى نقودهما ولا يجدان من الطعام غير الخبز والقهوة .

وكان فى ذلك الوقت آخذا فى ترجمة رواية «اوجينى جرانديه» لبلزاك وهو يعتبره أكبر الكتاب الفرنسيين ، ونشر هذه الترجمة فى إحدى المجلات الأدبية إلا أنها شوهت فى النشر إذ حذف منها صاحب المجلة ثلث القصة ، ولم تكن المجلات فى ذلك الوقت تعنى بالمؤلفين والمترجمين .

كان يمضى أيامه ولياليه فى الكتابة وهو غارق فيها فلا يجيب على سؤال يوجه إليه إلا متذمراً ، فاذا انقطع عن الكتابة اتخذ مقعدا بجانب الغرفة واستغرق فى القراءة . وقد أثرت هذه الحياة فى صحته وأخذت تظهر عليه أعراض مرض عصبى ، فحدث له مرة أن خرج مع صديقه فى نزهة فسقط فى الطريق . وكانا ذات مرة

يسيران ثم انعطفا إلى شارع فإذا جنازة تقابلهما فما أن شاهدها حتى انتابته نوبة شديدة اضطرت صديقه إلى حمله بمعاونة بعض الناس إلى البيت ، وكان يعقب هذه النوبات انقباض يستمر يومين أو ثلاثة فلا يقوى على العمل .

في ذات صباح نادى صديقه ، ودخل الصديق الغرفة فوجده جالساً على المقعد الكبير الذى يستعمله أيضاً فراشاً وأمامه منضدة صغيرة عليها كتاب ضخم مخطوط ، فلما رأى صديقه صاح به فى حماسة لم تكن من عادته : « اجلس قليلا ياجريجورفيتش لأنى انتهيت من هذا الكتاب أمس وأريد أن أتلوه عليك ولكن لاتقاطعنى ». وأخذ يتلو عليه كتابه المعروف « جماعة من المساكين »

روى الصديق : « كنت دائماً أقدر دستويفسكى تقديراً كبيراً . وقد أثرت فى تأثيراً عميقاً كثرة اطلاعه ومعرفته بالأدب وعمق آرائه ومتانة أخلاقه ، وكثيراً ما سألت نفسى : لماذا لم يكن له سهم فى الكتابة مع أنى كتبت ونشرت عدداً من المؤلفات ، فصرت أعتبر نفسى من رجال الأدب ؟ ولكن ما إن تلا الصفحات الأولى من كتاب « جماعة من المساكين » حتى تبين لى أن هذا المؤلف أعظم كثيراً من كل ما كتبت ، وأخذ هذا الاعتقاد يتحول إلى

يقين حينما استمر فى القراءة . ولقد سحرت بكتابه وهممت مرات أن أهجم عليه وأحتضنه لولا معرفتى باعتراضه على كل ما فيه إظهار قوى للعواطف غير أنه لم يكن من المستطاع أن أجلس صامتاً فكنت أقاطعه بين وقت وآخر بصيحات الإعجاب »

ما انتهى من القراءة حتى هجم عليه صديقه واختطف الكتاب من يده وفرّ به إلى الخارج . ماذا فعل ؟ لقد ذهب إلى منزل « نكراسوف » — وكان « نكراسوف » قد جمع بين الشعر واحتراف مهنة النشر — وأخذ يتلو عليه القصة فإذا ما وصل إلى المنظر الأخير منها حين أخذ « ديفوشكين » يودع « فارونكا » لم يستطع أن يتغلب على عواطفه فأجهش بالبكاء وكانت دموع الناشر تنهمر من عينيه . ثم طلب « جريجورفتش » إلى « نكراسوف » أن يذهبا معاً إلى « دستو يفسكى » ليعبر الناشر عن إعجابه .

انتصف الليل وكان وحيداً فى المنزل فإذا طارق بالباب ففتحه ورأى صديقه « جريجورفتش » مصحوباً برجل غريب، فظهرت عليه علائم الاضطراب وامتقع لونه وظل مدة طويلة صامتاً أمام المدائح التى انهال بها عليه « نكراسوف » . ولما انصرف الزائر

لم ينبس « دستويفسكى » بكلمة تأنيب بل قصد غرفته وأغلق عليه الباب وظل ساعات طويلة يسير فيها ذهاباً ومجيئاً .

لم تلبث هذه القصة أن اطلع عليها « بلنسكى » أكبر نقاد عصره ونشرها « نكراسوف » وكان نجاحها عظيما .

٢

بين الأدب والسياسة

سلك فيدور دستويفسكى حياة الأدب واتخذ الأدب مهنة كما فعل أخوه ميخائيل من قبل ، ولكن أية حياة كانت هذه فى روسيا ! لقد حاول بطرس الأكبر فى القرن السابع عشر أن يخرج روسيا من عزلتها الأسيوية ويصلها بأوربا ، بل يجعل منها بلداً أوربياً صرفاً ، فبنى هذا الملك العظيم مدناً على الطراز الأوربى وأوجد الصناعات ، وفتح المدارس وحث شعب بلاده على التعليم ، وكان حاكما عبقرياً بكل معنى الكلمة . فعل ذلك كله مع أنه لم يقلع عن عادته الوحشية فكان يحث شعبه على اتخاذ عادات المتحضرين ، ومع ذلك فهو يشرب الخمر بلا مبالاة حتى

يفقد صوابه ! وقد رقص الرقص الروسى ذات مرة طرباً أمام حاشيته عندما جاءته أخبار انتصار من انتصاراته العظيمة !

كان هذا القيصر العظيم يذهب فى رغبة الاتصال بالغرب إلى حد يبعث على الضحك أحياناً ، فقد فرض ضريبة للحصول على رخصة بإرسال اللحى كى يمنع انتشارها تشبهاً بالأوربيين !

لكن روسيا « المقدسة » كما يسمونها لم تكن لترتمى بسهولة فى أحضان الغرب ولم تكن لتعدل عن طابع الشرق وعاداته . فبعد أن مات بطرس الأكبر بدت حركات رجعية تحاول أن تباعد بين روسيا وبين الغرب ، وشجع هذه الحركة الرجعية القياصرة ورجال الدين ، وزاد فى نزعتهم الرجعية مارأوه فى الغرب من حركات فكرية حرة أخذت تنتشر فى أكثر بلاد أوربا لا سيما فرنسا . فكتابات ڤولتير وروسو كان لها صدى سيئ فى بلاد القياصرة الذين خشوا على عرشهم ، ثم انقلبت ثورة الآراء فى أوربا فصارت ثورة سياسية عنيفة تثل العروش ، فزاد القياصرة بمساعدة رجال الدين إمعاناً فى القضاء على أى نوع من الحرية الفكرية ، وتولى عرش القياصرة فى أوائل القرن التاسع عشر القيصر نيقولا الأول فكان مثالا للحاكم المستبد الذى يشغل ليله

ونهاره فى القضاء على هذه الحرية . وصار رب الفكر أو القلم رجلاً غير مرغوب فيه فى هذه الدولة ، ومع ذلك كان هذا العصر من أخصب عصور روسيا فى الأدب والفكر .

هكذا بدأ دستويفسكى حياته الأدبية وسط هذه الزوبعة من نقاد الأدب ورجال الفكر بعد أن كان منصرفاً إلى نفسه لا يختلط بغير الذين يحتاج إليهم فى حياته اليومية ، فكيف يستطيع الابتعاد عن محيط « بلنسكى » الناقد الشهير الذى أعجب به أشد الإعجاب ونادى قائلاً إن نجماً جديداً متألقاً ظهر فى أفق الأدب الروسى ؟ وكيف يبتعد عن النقاد الآخرين الذين شبهوا الأديب الناشىء « بجوجول » الشهير ؟ وكيف لا يغشى المجتمعات التى يسمع فيها شتى الآراء عن روسيا . ومكانها من العالم ؟

لم يكن بلنسكى يكبر فيدور بغير سنوات عشر ولكن أى فرق بين الاثنين فى الشهرة والنفوذ ؟ هذا واقف على أول سلم الشهرة يلتمس الصعود ، وذاك قد صار سلطاناً يتحكم فى الأدب ويحكم على الأديب أو المفكر فيخضع الناس لرأيه . ومع ذلك لم يكن « بلنسكى » من الذين سلكوا سبيل المدارس إلى الجامعات ، وحصلوا على الدرجات العليا ، بل أهمل تعليمه وهو غلام ولم يعن

والده الطبيب بأمره ولكنه كان شغوفاً بالقراءة مكباً على التزود من العلم حتى مكنته معارفه من الالتحاق بجامعة موسكو، وكان محباً المسرح يعتبره مدرسة أخرى، وفى هذه الجامعة وضع رواية تمثيلية قوية أظهر فيها الحدب على حال الفلاح الروسى والرثاء له، ثم قدمها للرجال المعهود إليهم الرقابة على كتابات الطلبة فى الجامعة فغضبوا لما فيها من دعوة اعتبروها ثورية وأرغموه على هجر الجامعة، ولم يكن تركه الجامعة بحافز له على ترك القراءة والاطلاع، فظل يدرس مؤلفات ذوى الفكر من الغربيين، وتأثر أولا بفلسفة « شلنج » ثم تأثر « بفيخت » وأخيراً اتجه فكره نحو « هجل »

كان بلنسكى إذا أعجب بكاتب أو أديب يبدى حماسة كبيرة لكتاباته حتى يغرق فى ذلك، ثم نرى حماسته تفتر وتتضاءل، ويتغلب العقل على مجرد النشوة، فهو فى كتاباته عن الأدباء الغربيين كثير التحول. ويبدو هذا التحول فى رسائله الخاصة قبل أن يبدو فى مقالاته.

تحمس « بلنسكى » لقصة « جماعة من المساكين » تحمساً فائقاً، وأخذ الكاتب الخجول فى نهم يتذوق الشهرة فهو يقبل على « بلنسكى » وهذا يخبره أنه يرى فيه تحقيقاً لآرائه التى

نشرها على الملأ ، وهو يقابل فى صحبته رجالاً من الذين ذاع اسمهم ، فهذا « ايفان ترجنيف » الأديب الارستقراطى الذى تعلم فى ألمانيا وصار من أكبر الدعاة للأدب الغربى ويصفه « دستويفسكى » المسكين بأنه نبيل وغنى وإن كان عندئذ فى أشد الفاقة ، وهـذا « كرونبرج » مترجم « شكسبير » ، وهذان الأديبان « اديولسكى » و « سولوجوف » اللذان كتبا مقالين صاغا فيهما الثناء على قصة « جماعة من المساكين » . . وفى وسط هذه الجماعة من الأدباء والنقاد يعيش « دستويفسكى » متعطشاً للثناء متنعماً بشهرته الحديثة عيشة السكير الذى فقد صوابه تحت تأثير الخمر ، لا يرعى حرمة من حوله بل يندفع فى نقدهم اندفاعاً ، ويبذر كل ما يصل إليه من مال تبذيراً فى وجوه غير نافعة ، فيقبل على الخمر ويتهالك على النساء من النوع الرخيص ولا يلبث أن يعود مفلساً ، فيلح فى طلب المزيد من النقود من ناشره !

الواقع أن هذه الجماعة من الصحاب بدأت تشعر بنوع من خيبة الأمل فى هذا الأديب غير مفرقة بين ما فيه من عيوب شخصية و بين نتاج عقله ، وأخذت هذه الجماعة تقيس مؤلفاته بمقاييس دقيقة وتطفف فى الكيل ولم يعد صحابه يرتاحون لما يرونه

فيه من غرور واندفاع . وانتهى به الإلحاح فى طلب النقود من « نكراسوف » إلى القطيعة . وأخذ « بلنسكى » بعد التحمس الشديد يبدى الكثير من التراجع والفتور ، وكان طبيعيا أن يتحول « دستويفسكى » نحو جماعة أخرى يجد فيها ما وجده من عجب فى هذه الجماعة .

٣

تهمة وإعدام

أدار « دستويفسكى » ظهره إلى « بلنسكى » وصحابه عازماً على أن يصلح من شأن نفسه ، وهجر تلك الجماعة الأدبية ولكنه ـم بجماعات والأندية . لذلك أخذ يتصل بصحاب يجمعون بين الأدب والسياسة ويعتبرون أنفسهم من رجال الفكر الذين يعملون بحرية مقتدين برجال الفكر فى أوربا لا سيما الفرنسيين منهم . وتتألف هذه الجماعة من شبان خياليين يقضون الليل فى مناقشات طويلة عما يجب أن يكون ، ويتزعم هذه الجماعة شاب موظف بوزارة الخارجية اسمه « بتراشفسكى » كان يتخذ

زياً يلفت النظر بقبعته العريضة ومعطفه الأسود الطويل ، وقد عرف كيف يقتنص الشهرة بطريقة عجيبة إذ وضع قاموساً بسيطاً للكلمات فلم يهتم له الرقيب ، ولكنه كان يحمل بين طياته السم الذى يخشاه الرجعيون فى التعريف ببعض الكلمات ، وتهافت الناس على هذا القاموس ففطن له رجال الشرطة وصادروه .

كان بين هذه الجماعة حلقة أقل تطرفاً من أعضائها «دوروف» و « مونبللى » و « فيلبوف » . أخذت هؤلاء الشبان رعدة من الحماسة على أثر ثورة ١٨٤٨ فى فرنسا واضطرار البابا بيوس التاسع فى روما إلى القيام بإصلاحات واسعة . وانتشر الاضطرابات الوطنية فى « ميلانو » و « فينتزيا » ونابولى » ، وانتصار الحرية فى ألمانيا والاضطرابات فى « برلين » و « فينا » . وقد ظهر لهؤلاء الشبان أن صروح الظلم فى أوربا تتساقط واحداً بعد آخر وأنها لا تلبث أن تتداعى فى بلادهم . وكانوا يتهافتون على قراءة الكتب والصحف التى تتسرب من أوربا سراً إلى روسيا ويناقشون ما فيها من آراء ودعوات جديدة ، ويقارنون بين حالها وبين الاضطهاد الفكرى القائم فى روسيا . وكانوا يعقدون بين حين وآخر اجتماعات فى منزل « بتراشفسكى » حيث يلقون الخطب

معجبين بمسائل السياسية والاجتماعية بينما كانت جماعة « دوروف » تجتمع كل يوم جمعة فى المنزل الصغير الذى يقطنه « دوروف » لمناقشة فى المسائل الأدبية . ولكن « دوروف » كان فقيراً فكان على الجماعة أن يدفعوا مبلغاً شهرياً للمساعدة فى الاحتفاء بالضيوف واستئجار « البيانو » الذى يعزفون عليه الألحان والأناشيد . وكان « دستويفسكى » كثير الإقبال على هذه الجمعية الأخيرة التى يتبادلون فيها الكتب المحرمة ويهتمون بموضوع تحرير الفلاحين . ويرى أكثر أعضاء هذه الجماعة أن تحرير الفلاحين فى روسيا لا يأتى بالطرق المشروعة ، أما هو فيعارضهم فى تلك الفكرة ويعتقد أن لا وسيلة إلا طريق الحكومة . وتدور الأحاديث أحياناً فى الشئون الأدبية وعندئذ تتجلى براعته وسعة اطلاعه . ففى ذات مرة أنكر أحد الحاضرين نبوغ « درشفين » الشاعر وقال إنه ليس شاعراً كبيراً بل هو رجل وضيع من خدم البلاط القيصرى ، فقفز كأنما لسعته أفعى وصاح : ماذا تقول؟ تنكر قوة شاعريته وتنكر أن شعره بلغ القمة ؟ وأخذ ينشد قصيدة لدرشافين من الذاكرة فى حماسة وقوة حتى إن شاعر القيصرة « كاترين العظيمة » ارتفع توا فى أعين

الحاضرين . وفى مرة أخرى دار الحوار فى المفاضلة بين « بوشكين » الشاعر الروسى و « فيكتور هيجو » الشاعر الفرنسى فأخذ يتكلم ويوازن بينهما وينشد من أشعارهما حتى أثبت للحاضرين أن الروسى يفوق زميله الفرنسى كثيراً .

كان بين جماعة « دوروف » رجال يعتنقون مذهب الاشتراكية ويرون فيها ديناً جديداً سيغير فى يوم ما من وجه الأرض . وهم يقرؤون سراً جميع المؤلفات التى تظهر باللغة الفرنسية فى الموضوعات الاشتراكية وتتداولها الجماعة ، ولا تفتأ الجماعة تتحدث فى أحلام « روبرت أوين » و « كابت » وخيالات « فورييه » ونظم « برودون » . ويهتم جميع الأعضاء بهذه الآراء ولكن البعض لا يعتقد بإمكان تحقيقها ، ومن هذا البعض « دستويفسكى » . أجل إنه قرأ جميع المؤلفات التى وصلت إلى يديه عن الاشتراكية ولكنه ظل لا يعتقد فيها وإن اعترف بأن هذه الآراء صادرة عن نفس نبيلة . ولكن لا يمل من الكلام مجادلاً وقائلا : إن هذه النظريات الأجنبية عن روسيا لا تحمل معنى حقيقياً لتلك البلاد ، إنما تطور الهيئة الاجتماعية فى روسيا يجب أن يقوم على الحياة فيها ، وعلى عاداتها التى ظلت قائمة قروناً ،

وعلى ما فى الشعب الروسى من فضائل . و إن الحياة فى هيئة الشيوعية لهى أشدّ ضغطاً على الإنسان من الحياة فى سجون سيبريا .

وكانت الجمعة تتناول أعمال الحكومة وقوانينها بالنقد اللاذع ، وفى ذلك يبدى « دستويفسكى » من السخط والانتقاد مثل ما يجول فى نفوس زملائه ، وهو يحمل الحملات الشديدة على كل ما فيه عبث بالطلبة والطبقات الفقيرة . وفى هذه الآراء نلمس مؤلف « جمعة من مساكين » .

وفى ذات مرة جاء أحد أعضاء الجمعة وكان فى سفر إلى موسكو بصورة رسالة موجهة من « بانسكى » إلى « جوجول » وعجب « دستويفسكى » بهذه الرسالة الشهيرة إعجاباً شديداً وتلاها أكثر من مرة فى الاجتماعات المختلفة التى كان يغشاها .

لم تكن أعين نيقولا الأول مغمضة دون هذه الحركات ، ولم تكن عيون جواسيسه نائمة فهم نشطون فى كل مكان ينتظرون فرصة لكى يثبتوا نفعهم ويبذلوا مكافأة على مجهودهم ، وأى مكان أخصب فى الصيد من هذه الجمعيات الفكرية ؟ !

وفى ذات يوم أقامت جمعة « بتراشفسكى » مأدبة لتكريم ذكرى « فورييه » المفكر الفرنسى ، وخطب بعض الأعضاء

طويلاً فى مختلف الآراء ، وكان الطعام اللذيذ والشراب . وفى أثناء الحديث صاح « بتراشفسكى » وقد لعبت الخمر برأسه : « إذن لم يبق معنى لوجود الحكومة الحالية » ولم تجد هذه الصيحة ترديداً ، ولكن ما أسرع ما نقلها الجاسوس لرئيسه الذى أبلغها القيصر فلم يلبث الطاغية أن أصدر أمراً بالقبض على الجماعة « وليفعل الله ما يشاء » وهى العبارة التى ختم بها القيصر أمره .

قبض على الجماعة فى إحدى ليالى أواخر ابريل سنة ١٨٤٩ ، وكان منهم بتراشفسكى وفيدور دستويفسكى ودوروف وموتبللى وفيلبوف . وبعد ذلك بأيام قبض أيضاً على ميخائيل دستويفسكى ، ولكنه لم يلبث طويلا فى السجن حتى أطلق سراحه وعاد إلى زوجته وأولاده ، أما « فيدور » فظل معتقلا فى قلعة « بطرس وبول » القديمة متداعية .

ظل المحققون طويلا فى بحث هذه القضية ، وكانوا كبيرى الإشفاق على هؤلاء المتهمين . ولكنه لم يكن من الذين يعرفون كيف يحتفظون بود الناس وعطفهم فكان يجيب إجابات حمقاء خشنة ويظهر صلفاً وتجبراً يناقش الآراء التى اتهم بها لا على أنها تهمة بل كأنه مؤرخ يريد أن يثبت رأيه . والواقع أن المحققين

كانوا حائرين فى وصف الجريمة ، فهى لم تصل إلى حد الشروع فى أمر ، وليست فيها أعمال تحضيرية ، ولم يعلموا قط بشراء الجماعة لمطبعة سرية أمكنهم تبرير بها عند القبض عليهم . ولكن القيصر يريد تشديد العقوبة وأن يكون هذا الحادث مثالا رادعاً لمن تحدثه نفسه بنقد النظم المقدسة نقداً ، لذلك طلب إلى المحققين أن يطبقوا أقصى العقوبات التى وضعت لسلامة الدولة .

فى ذات صباح وفى أحد أيام ديسمبر أيقظ السجانون هؤلاء المتهمين من نومهم وطلبوا إليهم أن يسرعوا فى ارتداء ملابسهم المدنية التى خلعوها منذ أشهر إذ ارتدوا المعاطف الرمادية الخاصة بالمجرمين السياسين ، وخرج كل سجين إلى فناء الحصن بينما الساعة تدق السابعة . وكان الجو بارداً ولكنه يبشر بيوم بهيج ، ولم يكد المتهمون يقبلون على بعضهم البعض حتى أمروا بركوب مركبات مصطفة لحملهم ، وجلس جندى إلى جانب كل سجين وكان يحرسهم أربعة من الجنود الفرسان ، وسأل أحدهم الجندى : إلى أين نذهب ؟ فأجاب : هذا ما لا يسمح بقوله . وعبر الموكب جسر نهر النيفا واجتاز طريقاً طويلاً حتى وصل إلى مكان ما وأمر المتهمون بالنزول فإذا بهم فى ساحة « سيمونوفسكى » وقد وقف فى أطرافها عدد لا يحصى

من الجماهير الصامتة . وكان أمام المتهمين منصة منصوبة اصطف على ثلاثة جوانب منها صفوف من الجند، وسير بالمتهمين إلى المنصة وأوقف تسعة منهم إلى اليمين وأحد عشر إلى اليسار ، وتقدم النائب عن المجلس العسكرى ليتلو الحكم . فهو يذكر الأسباب التى بنى عليها ثم يقرؤه وهو يقضى بالإعدام على أحدهم ، فهذا اسم بتراسفسكى ، وهذا اسم مونبللى ، وهذا حكم على عشرة بالإعدام ، ثم يسمع « دستويفسكى » اسمه والأمر بالتفرقة بينه وبين هذه الحياة ومع ذلك لم يكد يصدق فهو يهمس فى أذن « دوروف » : هل حقيقة ماتنا الموت ؟ فيشير جاره بعينه نحو عربة مغطاة أعدت فيها التوابيت . وانتهى النائب من قراءة الأحكام ووضعها فى جيبه . وتقدم القس إلى المنصة وأخذ يتكلم فى الخطيئة والموت ومع ذلك كان غريباً من القس أنه لم يحضر المياه المقدسة ! زالت الدهشة عن المتهمين وأخذهم زهو يشبه شعور الشهداء ، وجذب ثلاثة منهم وعصبت أعينهم استعداداً للموقف الأخير وكان « دستويفسكى » السادس فدوره يأتى فى المرة القادمة .

نفخ جندى فى بوقه ودقت الطبول وتقدم ثلاثة من بين

الجنود وصوبوا بنادقهم وصاح صائح : « أطلقوا النار » . ولكن البندقية لم تنطلق فقد تقدم أحد الياوران رافعاً منديله يلوح به فإذا البوق ينادى على الجنود بالعودة . ويتقدم الجنرال و«رستوفزيف» الذى كان فوضيهم ويعلن العفو عنهم : « إن جلالة القيصر الرحيم الرؤوف يهب لكم حياة » وهكذا أبدل الحكم بالإعدام بالعفو عن واحد والقضاء على الآخرين بالسجن ثم بالنفى .

هذه هى نهاية المطاف لآمال الشباب وأحلامه وقد أعد لهم القيصر درساً قاسياً إلى حد أن فقد أحدهم عقله ، ولكن « دستويفسكى » كان ذا طبيعة أخرى فهو فى هذا الموقف أقلع عن حياة اللهو وحب الشهرة ، لقد وهبت له الحياة فهو يستقبلها فى غبطة ولكنه لن يذوق فيها إلا علقماً !

٤

بيت الموتى

فى الليلة الخامسة والعشرين من شهر ديسمبر وضعت الأغلال فى قدمى كل من هؤلاء التعساء وسارت بهم القافلة نحو السجن

والمنفى فهم يخترقون جبال « الأورال » إلى مجاهل « سيبريا » ليوزعوا على سجونها ، ووصلت القافلة فى طريقها إلى مدينة « توبولسك » حيث أودع بعض رجال هذا الموكب سجونها ، أما هو وصديقه « دوروف » فكان مقدراً لهما أن يسكنا السجن فى مدينة « أومسك » . وفى مدينة « توبولسك » استأذن ثلاث سيدات فى زيارة هؤلاء التعساء وكانت هؤلاء السيدات زوجات رجال من الذين اشتركوا فى ثورة ديسمبر الشهيرة فى أول عهد « نيقولا الأول » . وأبت هؤلاء الزوجات إلا أن يصحبن أزواجهن إلى المنفى ، وخلد « نكراسوف » الشاعر ذكراهن فى مقطوعات خالدة ، ولعلهن رغبن فى رؤية الجيل الجديد من الثوار ليرين هل فيهم حماسة الماضى ؟ تقدمت هؤلاء السيدات إلى المسجونين بأنواع من العزاء قد لا تغنى ولكن إحداهن أهدت إليه كنزاً ثميناً هو نسخة من الإنجيل فكانت عزاءه فى السجن واحتفظ بها حتى آخر حياته .

وصل إلى مدينة « أومسك » وأودع سجنه حيث سكن أربع سنوات ما كان أشد أثرها فى حياته ! وكيف ننتظر أن لا يكون له هذا الأثر الكبير ، فإن ملايين من رجال روسيا

على مر الأجيال ذهبوا إلى « سيبريا » فلم يسمع لهم خبر، أتعجب إذن أن يصهره هذا السجن فى « سيبريا » فيخرج رجلاً آخر .

إننا نستطيع أن نقدر تأثير هذا السجن على نفسه حين نقرأ رسالته التى كتبها إلى أخيه من « سيبريا » بعد خروجه من السجن ، وفيها يقول : «عشت خمس سنوات تحت رقابة السجانين مع طغمة من المخلوقات البشرية لا أنفرد بنفسى ساعة واحدة مع أن الانفراد ضرورة فى الحيية العادية كالمأكل والمشرب و إلا انقلب الإنسان فى هذه الحياة المشتركة الإجبارية كارها لبنى البشر ، و يكون لعشرة النـاس على هذا المنوال أثر كالسم أو العدوى . لقد تألمت فى السنوات الأربع من هذا العذاب الذى لا يطاق أكثر ممـا تألمت من شىء آخر ، ومرت على فترات كنت أكره فيها كل من يأتى فى طريقى مذنباً كان أم بريئاً ، وأنظر إليهم على أنهم لصوص يسرقون منى حياتى دون عقـاب »

لـكننا إذا أردنا أن نقدر مبلغ تأثير هـــذا السجن فلنقرأ كتابه الخالد « بيت الموتى » ، وهو من أعظم كتبه ، وفى رأى بعض النقاد هو أعظمها .

كتاب « بيت الموتى » هو قصة رجل كان سيداً من أصحاب الأراضى ولد فى روسيا ، ثم صار سجيناً من مجرمى القسم الثانى لأنه قتل زوجته ، وبعد أن ظل فى السجن عشر سنوات أطلق سراحه ، وعاش عيشة هادئة حقيرة فى إحدى مدن « سيبريا » حيث أخذ يكسب قوته بتعليم أولاد الموظفين ، وكثيراً ما يقابل الإنسان فى « سيبريا » معلمين هم فى الأصل سجناء ، ولكن الناس لا يحتقرونهم لذلك . ويذهب الكاتب فى وصف خصاله وحياته التى يعيشها وكيف عرفه وصحبه ، حتى إذا مرض الرجل وأشرف على الموت أرسل مذكرات وضعها عن حياته إلى هذا الصديق ، وهذه المذكرات هى التى تصف السجن .

كان هذا السجن يحتوى على مئتين وخمسين سجيناً قلما يتغير عددهم ، فالبعض يأتى ، والبعض يتم مدة الحكم ويرحل ، والبعض يموت ، فيهم من كل بلد وناحية من أنحاء روسيا ، وفيهم بعض الأجانب ، وفيهم رجال من جبال القوقاز ، وهم مقسمون حسب درجة جرمهم ، أو بالأحرى حسب السنين التى حكم بها عليهم . وعندما لا يوجد نوع من الإجرام لا يكون ممثلا فى هذا السجن . وكل قسم مميز عن الآخر بملابسه فالبعض منهم سترته

ذات لونين ، والسروال كذلك ، والبعض سترته من لون واحد ما عدا الأكمام ، ويميز السجناء أيضاً بطريقة حلق الرأس ، فالبعض يحلق شعر رأسه إلى النصف عرضاً ، والبعض يحلقه إلى النصف طولا ، وفى نزلاء السجن صفة يمكن إدراكها لأول وهلة ، فهم لا يميلون إلى لمرح ويعمدون إلى اتخاذ هيئة الجد والعبوس ، وهم قوم حساد مغرورون يكثرون من الزهو ، وأكبر فضيلة فى أعينهم يودون أن يتسموا بها هى أنه لا تتولاهم الدهشة لأى أمر مهما عظم . والعجيب أنهم فى موقفهم هذا يهتمون بالمظهر اهتماماً كبيراً ، والغالبية فيهم رجال فاسدون مجردون عن الأخلاق الكريمة ، وهم يميلون إلى النميمة والطعن فى زملائهم . ولكنهم مع ذلك لا يجرؤون على الثورة على قوانين السجن .

يأخذ الكاتب فى وصف حياتهم اليومية ، وطرق معيشتهم ، ثم يأخذ فى تحليل شخصيات زملائه ويورد صوراً بديعة بعضها مظلم والبعض الآخر له بريق كبريق النجوم فى السماء الحالكة ، فهنالك صورة « أكيم أكيمنتش » الذى كان يمده بالنصائح ، ويعلمه كيف يسلك فى هذا السجن ، وهو الرجل الذى كان

يشتغل إلى الساعة العاشرة والحادية عشرة مساء فى صنع الفوانيس من الورق الملون لتباع فى المدينة بأثمان لا بأس بها ، وكان ماهراً جداً فيها ، وهو منظم فى جميع حياته ، وتلك صورة « نوره » اللزهى الشاب المتوسط القامة القوى البنية ذى الوجه الذى يشبه امرأة من نساء الفن ، والشعر الأشقر والعينين الزرقاوين والأنف الصغير ، ذلك الذى كان جسده مغطى بآثار الجراح من السيوف والحراب والرصاص ، وهو أحد رجال قبيلة محالفة للروس ، ولكنه كان لايفتأ يغزو القبائل المعادية لقبيلته من أهل جبال روسيا ، وكان يغضب لما يراه فى السجن من الغش والسرقة والسكر ، وكل ما هو بعيد عن قواعد الشرف ، ولكنه لا يحاول أن يخاصم أحداً ، ويصلى الفروض كما تقضى ديانته الإسلامية ، ويصوم رمضان ، وكل المسجونين يحبونه ويعجبون بشجاعته حتى لقبوه « نوره الأسد »

وتلك صورة « على » التترى الذى لا يزيد عمره عن اثنتين وعشرين سنة ، ذى الوجه الجميل الصريح ولابتسامة كابتسامة الطفل ، بعينيه الواسعتين السوداوين الناعستين ، وهو الذى اجتذب قلب صاحب مذكرات وقبل يعلمه اللغة الروسية والقراءة

والكتابة حتى إذا أفرج عن الشاب وجاءت ساعة الوداع هجم عليه الشب وقبله قبلة اعتراف بالجميل .

وهنالك « بتروف » الذى بلغ الأربعين ولكنه يبدو أصغر من سنه بسنوات ، وهو الذى كان يقبل على بطل القصة ويزوره كثيراً ليطمئن عليه ويقضى مصالحه ، وهو دائماً متعجل كأنه آت من مكان سحيق ، وهو على ما يكنه من المودة لبطل القصة وما يظهر عليه من دعة وصفه أحد نزلاء السجن بقوله « إنه أشد المسجونين عزيمة وأقلهم خوفاً ، وهو قادر على أن يرتكب كل شىء ولا يقف عند حائل إذا جاءته الفكرة فهو يقتلك لو خطر له ذلك ، ويقتلك دون تراجع ولا يفكر فى ذلك بعد لحظة ، بل إنى أعتقد أنه ليس فى تمام عقله » .

وذلك الإسرائيلى القصير الذى كان يصلى و يتعبد مساء كل جمعة فيأتى نزلاء السجن ليشاهدوه ولم يكن فى هذه الصلاة ومراسيمها ما يلفت النظر ، بل الذى يلفت النظر هو تمثيله فى حركاته كأنه يفعل ذلك لتسلية جمهور أهل السجن . ثم يقترب عيد الميلاد ويستعد أهل السجن للاحتفال به وتمجيده . فهم يشترون خموراً ومواد غذائية لعمل مأدبة كبيرة . ويقوم

جماعة منهم بالاستعداد لتمثيل رواية هزلية .

وهذا وصف للمسجونين فى الحمام وماذا يفعلون بأغلالهم وضجيجهم وسط البخار المعقود فوق الرءوس .

ثم حياة مستشفى السجن وما يلقاه السجناء من إهمال وما يسمعونه من تأوهات وما يرونه من زملاء يلفظون النفس الأخير.

فى هذا الكتاب صور خالدة لا تمحى من الذهن ، وهو يعج بعالم من الناس حتى ليتصور القارئ أنه يرى بلداً كبيراً يعيش فيه الناس فى كنف الحرية . كل ذلك فى سرد عجيب لا يسع القارئ أن يتوقف فى قراءته . ولعل أهم ما فى هذا الكتاب وما يميزه بصفة خاصة هى تلك الروح الإنسانية الشاملة التى تملأ نفس الكاتب ، وذلك العطف الذى يأبى إلا أن يتفهم كل شىء ، ويلتمس المعذرة لأقبح ما يمجه الناس ، وهو يتميز عن كتبه الأخرى ، بالبعد عن الرغبة فى الإطالة والاسهاب ، وإن كان الكتاب طويلاً ، فهو كتاب تشعر بأنه وضع لأن المؤلف يريد أن يبوح بشىء ويزيح عبئاً عن نفسه لا لأنه يكتب شيئاً انتظاراً لنشره فى مجلة أسبوعية أو شهرية .

ربما ظُن من هذا الكتاب أن « دستويفسكى » وجد فى

السجن مدة لموضوع هام شغله ، وأنه ألف حياة السجن وخالط زملاءه فكان محبوباً منهم ، والحقيقة أنه كان برما بهذه الحياة .

وقد وصفه بعض الحراس بأنه رجل كريه وأنه يبدو كالذئب الذى وقع فى الشرك ، وإذا رغب أحد رؤساء السجن فى التخفيف عنه ونفعه فى شىء عد ذلك إهانة . وكان رؤساء الحراس يدعون المسجونين أحيانا إلى غرفتهم للترفيه عنهم قليلا ، فاذا دعوه لا يحادثهم إلا مرغما ولا يصارحهم بشىء ، فإذا أظهروا له عطفا أظهر منهم حذرا ، وقلما يقبل منهم الكتب التى يعرضون عليه قراءتها . ولم يقبل غير كتابين « دافيد كوبر فيلد » وأوراق « بيكوك » . وقد فسر طبيب السجن مسلكه هذا بضعف حالته الصحية ونوباته العصبية بالرغم من مظهر القوة الخارجى فيه .

٥

معيشة المنفى

ماذا كان شعوره عند ما أتم مدته فى السجن ؟ لو اعتبرنا كتاب « بيت الموتى » سجلا لحياته بين جدران هذا المكان ، لقلنا إنه ترك السجن وهو آسف ، فقد رأيناه يعطف على زملائه عطفاً لا حد له ، على أن ترك هذا المكان على الأقل نوع من التغيير وإن كان لا يزال يوفى عقوبته . فهو لا يزال محروماً من روسيا بلاده ، ولايزال مقضياً عليه بأن يبقى فى «سيبريا» ومدنها الحقيرة ومجاهلها السحيقة . وعلى ذلك لم يبق أمامه إلا أن يدبر لنفسه عملا ، فالتحق جندياً بالفرقة السابعة المقيمة فى سيبريا وانتقل إلى مدينة « سمیبالاتينسك » الصغيرة . وكانت تلك المدينة عندئذ تكاد تكون قرية ذات بيوت من الخشب لا يزيد عدد سكانها عن خمسة أو ستة آلاف ، منهم رجال الحامية والتجار الأسيويون . ومن سكانها ثلاثة آلاف من الشركس وبها كنيسة أرثوذكسية وسبعة مساجد ومركز للقوافل ، وثكنات ،

ومستشفى و بعض المنشآت الحكومية . وتجد فيها حوانيت تشترى منها كل ما تحتاجه حتى العطور الباريسية ولكنك لا تجد حانوتا واحداً يبيع الكتب إذ لا يقبل أحد على قراءتها ، وكل عشرة من السكان يشتركون فى عدد واحد من إحدى الصحف ، وليس ذلك بعجيب فى « سيبريا » فهى بلاد لا يحسن أهلها عندئذ إلا المتاجرة ، ثم الميسر والخمر والخوض فى سير الناس . وقد سكن فى مبدأ الأمر فى الثكنات ثم انتقل منها إلى منزل خاص فى حى من أقذر أحياء المدينة ، فى بناء من الخشب لا تطل نوافذه على الشارع ، وهو يؤلف غرفة واسعة ، ولكنها مظلمة وحوائطها كانت بيضاء ذات مرة ثم صبغها الدخان بلون قاتم . أما نفقات المعيشة فهى غاية فى الرخص ، وله أن يحمل نصيبه فى الطعام من الثكنة إلى الدار .

وجد فى تلك المدينة أصدقاء مخلصين ، فقد قابل البارون « فرانجل » وكان شابا من عائلة نبيلة ، صديقاً « لميخائيل » شقيقه ، تعين قاضياً مركزياً فى « سيبريا » فحمله « ميخائيل » رسالة و بعض الملابس والكتب والنقود لأخيه ، فلما وصل إلى «أومسك» لم يجده بها إذ كان قد أتم مدة السجن، ولكنه لم يلبث

طويلا حتى شاءت المقادير نقله لمدينة « سميبالاتينسك » فما أن وصل إليها حتى دعاه إلى تناول الشاى معه فى المساء ، ولم يكن دستويفسكى يعرفه من قبل، لذلك زاره وهو شديد التحفظ ، وكان يرتدى ملابسه الرسمية وهى حرملة رمادية اللون عسكرية ذات ياقة حمراء وعلى كتفها شارة حمراء، وكان وجهه الأصفر المبقع بالحمرة عبوساً وشعره الأشقر قصيراً . وأخذ يحدق فى « فرانجل » بعينيه الرماديتين ، ولعله أراد أن يكشف أى نوع من الرجال هو ، وظهر فيما بعد أنه اضطرب إذ دعى لمقابلة قاضى المركز ، فإذا سلم إليه « فرانجل » الرسائل والحقائب انبسطت أساريره وأقبل على مضيفه وقرأ رسالة أخيه فاذا الدموع تترقرق فى عينيه ، وجاءت عندئذ عدة رسائل للبارون « فرانجل » فأخذ يتلوها وأسرعت إلى عينيه دموعه فنسى مركزه كقاض وارتمى على عنق ضيفه الذى أخذ ينظر إليه فى ألم ويطيب من خاطره . ومنذ ذلك الحين ارتبطت أواصر الصداقة بين الشريف ونزيل السجن .

كان ذلك الحين يجد عزاء لوحدته فى التردد على منزل رئيسه الكابتن « ايساييف » وهو ضابط تزوج من فتاة جميلة فرنسية الأصل ورضى أبوها به زوجا إذ كان يؤمل له مستقبلا زاهراً ،

ولكنه اكتشف فى زوج ابنته عيباً كبيراً فهو مدمن الخمر لا يفيق منها إلا أويقات قليلة يظهر فيها الندم والتوبة ثم لا يلبث أن يعود لهذه الرذيلة ، وقد غضب عليه لهذا الأمر رؤساؤه فنقل من « بطرسبرج » إلى « سيبريا » وانتقلت زوجته معه . وكانت هذه السيدة تنظم الشعر وتحاول أن تحتفظ بمركزها بالرغم من حالة زوجها ، وتعرفت إليه فصار كثير التردد على منزلها .

كانت المدينة خالية من أى نوع من أنواع التسلية فلم يكن البارون يجد تسلية فى وحدته غير معاشرة « دستويفسكى » ويحدثه هذا عادة عن القصص التى صاغها عندئذ ، فقد وضع قصتى « أحلام العم » و « قرية ستيبانشيكوفو » وكثيراً مايقضيان الليل فى النكات والضحك . وهو يقص على «فرانجل» مغامرات هذا « العم » ويتناول المؤلفين الذين يحبهم بالنقد والتحليل وكان أحب مؤلفين اليه فى ذلك الحين « جوجول » و « فيكتور هوجو » وكان أحياناً ينشد أشعاراً من شعر « بوشكين » . ولم يكن « فرانجل » عندئذ شغوفاً بالأدب ، فكان صديقه ينصحه ويدعوه بأن يلقى كتبه الدراسية بعيداً .

• وفى منزل الضابط « ايساييف » تستقبله « ماريا ديمتر يفنا »

زوجة الضابط وهى فى الثلاثين من عمرها شقراء متوسطة القامة نحيلة الجسم متوقدة العواطف خداها مشربان بحمرة غير طبيعية لعلها أول علامة للمرض الذى ماتت به بعد سنوات ، وكانت تهتم له اهتماماً كبيراً ، وإن لم تكن فى الغالب تقدره حق قدره ، بل كان اهتمامها ناشئاً عن الإشفاق ، إذ تعرف فيه الفقر وتعرف أنه مصاب بمرض خطير هو الصرع ، وكانت كثيراً ما تقول إنه رجل بلامستقبل ، ومن الثابت أنها لم تكن تعشقه بيد أنه أخطأ التقدير فظن الشفقة عشقاً ، وصار يعبدها بكل جوارحه ، وصار هذا الحب ينمو حتى لم يعد له حديث مع صديقه « فرانجل » غير جمال « مدام ايساييف » وسحرها ، وهو يعجب لأن هذا الصديق لا يشاطره فى هذا الرأى .

فى ذات مساء دخل على صديقه « فرانجل » وهو فى حالة يأس شديد إذ بلغه أن « ايساييف » نقل إلى مدينة أخرى تبعد بضعة أميال عن مدينتهما وقال لصديقه فى مرارة : « العجيب فى الأمر أنها هادئة لذلك ولا ترى فى النقل كارثة . . . . . أليس ذلك مما يدفع للجنون ؟ »

جاءت ساعة الرحيل فصار يبكى كالأطفال وقرر « فرانجل »

أن يشيع هذه العائلة مصطحباً إياه بعض الطريق ، ودبر الصديق وسيلة لكى يستطيع « دستويفسكى » أن يودع السيدة الوداع الأخير ، فدعا الزوج إلى شرب كأس من الخمر فى منزله وسقاه منها حتى ثمل ، وفى الطريق سقاه شيئاً من الشمبانيا حتى فقد صوابه ونام فاجتمع « بماريا » فى عربتها ، وكانت ليلة جميلة من ليالى شهر مايو ، ضوء القمر فيها عجيب والجو عبق بروائح الأزهار . وجاءت ساعة الوداع وكأنه يودع الحياة ، فعانق السيدة وترقرقت فى عينيهما الدموع ، بينما أخذ « فرانجل » يوقظ الزوج المخمور لينتقل إلى العربة الأخرى وانتقل الزوج إلى جانب زوجته وما لبث أن عاد إلى أحلامه .

عاد الصديقان إلى المدينة فى مطلع الفجر والدموع تنهمر من عينى « دستويفسكى » وهو متعب من أثر الرحلة ومع ذلك لم يذهب إلى فراشه ، بل ظل يسير ذهابا وجيئة فى الغرفة يحادث نفسه حتى الصباح . ثم ذهب إلى المعسكر للتمرين فإذا عاد إلى بيته لم يتناول طعاماً ولا شراباً طول يومه بل اكتفى بالتدخين .

على أن الزمن خفف من وطأة يأسه . ومع ذلك استمر يراسل هذه السيدة ورسائلها لا تأتى إليه بأخبار سارة ، فهى تشكو إليه

الفاقة المدقعة وتشكو إليه المرض وتشكو إليه إدمان زوجها وما ينتظرهما من مستقبل مظلم ، فيؤثر ذلك فى نفسه تأثيراً سيئاً وتسوء صحته ويصير سريع الغضب ويبدو كأنه شبح لا إنسان ، بل إنه أقلع عن الاستمرار فى تكملة « بيت الموتى » بعد أن بدأها فى حماسة .

وزادت رسائل مدام « ايساييف » فى الأنباء السيئة فهى تخبره بوفاة زوجها وكيف تركها وابنها الصغير بلا عائل ولا مال ، ثم بدأت تذكر اسم شخص تعرفت به هو مدرس شاب وزميل لزوجها ، وزادت رسائلها فى مدح هذا الشخص والإشادة بعطفه وإخلاصه ، فاشتعلت الغيرة فى نفسه وزادت آلامه ، فرأى « فرانجل » أن يرفه عنه بأن يدبر مقابلة بينه و بين السيدة « ايسايف » فى مدينة واقعة فى منتصف الطريق ، وكان من المستحيل الحصول على موافقة السلطات على هذا السفر الطويل ، وقد سبق أن رفض الحاكم مرتين منحه إجازة ، فلم يكن أمام الصديق إلا أن يدبر هذا اللقاء فى الخفاء ، فأذاع أن « دستويفسكى » مريض إذ أصيب بعدة نوبات من الصرع وأنه مضطر لملازمة الفراش ، وأخبر قائد فرقته بمرضه وأنه تحت علاج طبيب الجيش وكان هذا الطبيب

واقفاً على سرهما وهو « بولندى » كان طالبا بجامعة « فيلنا » ثم نفى الى سيبريا لارتكابه جرماً سياسياً ، ونبه القاضى على خدمه أن يقولوا لكل إنسان إنه راقد فى منزل القاضى وأقفلت النوافذ إذ أن الضوء يهيج أعصابه. وحدث لحسن الحظ أن تغيب جميع الرؤساء فى ذلك الوقت . وفى الساعة العاشرة مساء ركب الصديقان عربة سارت تنهب الأرض ولكن المسكين كان يتخيلها تزحف وئيداً كالسلحفاة ، ووصل الصديقان فى الصباح إلى المدينة فلم يجدا « ماريا ديمتريفنا » بل وجدا رسالة منها تخبرهما أنها لم تستطع السفر لأنها لا تجد المال اللازم للرحلة .

٦
زواج أول

كانت هزيمة الجيوش الروسية فى سباستبول أمام الجيوش المتحالفة لدول أوربا بداية لانهيار تلك الأوتوقراطيــة المنظمة التى عمل لها القيصر « نيقولا الأول » وكانت أيامه الأخيرة مظلمة إذ لم يحقق آماله فى كتم أنفاس الحرية ، فإذا اعتلى « اسكندر

الثانى » عرش روسيا أمّل مفكروها فى عهد جديد . ولا ريب فى أن عهده اقترن بإصلاح من أكبر الإصلاحات فى الحياة الاجتماعية وهو تحرير الفلاحين واعتبارهم مخلوقات بشرية بعد أن كانوا يعتبرون كرؤوس الأنعام التى يملكها السيد . إلا أن هذا الاصلاح على خطورته لم يغير شيئاً من النظام الاستبدادى و إن زاد شعور جموع هائلة بهذا الاستبداد .

كان « دستويفسكى » فى منفاه السحيق بعيداً عن أن يشعر بهذه الآمال التى اتى فى سبيلها السجن و العذاب. والواقع أنه لم يكن كثير التفكير فى حالة روسيا ونظمها السياسية ، ولا من المعارضين لنظام الحكم القائم ، بل كان أديباً يحب بلاده ويرجو خيرها ، وكان أبعد الناس عن أن يشجع على الانقلابات والثورات . بل هو يرجو الصلاح على يد الحكم القائم والنظم الموروثة فى روسيا المقدسة . وفى تلك اللحظات بالذات يفكر فى حياته المظلمة ومستقبله الضائع، وهو يشعر بالوحدة أكثر من ذى قبل و يتمنى أن يكون له بيت كسائر الناس وزوجة كسائر الرجال .

لذلك نراه إذا عرض عليه البرون « فرانجل » انسعى للعفو عنه لا يستنكر ذلك بل يرحب بهذه الفكرة و يضع قصيدة

يرثى بها « نيقولا الأول » فيحملها الصديق إلى القائد الحاكم ويرجوه أن يرسلها إلى أرملة القيصر الفقيد ، ولكن هذا يأبى قائلا إنه لن يساعد عدو الحكومة ، ولكن إذا أراد ذوو السلطة فى بطرسبرج أن يخدموه من تلقاء أنفسهم فلن يقف حائلا دون ذلك السبيل .

ومع ذلك لم ييأس البارون «فرانجل» وكتب إلى أبيه وأقاربه من النبلاء حتى وصلت هذه القصيدة إلى يد الأرملة الحزينة .

ثم نظم قصيدة أخرى بمناسبة تولى « اسكندر الثانى » عرش القياصرة ، وهذه القصيدة سلمها البارون « فرانجل » شخصياً فيما بعد لكبير رجال البلاط .

وزادت وطأة المرض عليه فى تلك الأيام وأصبحت نوبات الصرع تعتريه متقاربة وصار دائم الاضطراب حتى خشى على عقله ، فهو يرى أنه خلق لكى يعيش أديباً ولكن لا يؤذن له بنشر مؤلفاته ما دام فى المنفى ، واعتراه اليأس لهذا ، فألح أكثر من مرة على البارون « فرانجل » أن ينشر القصص التى وضعها إلى ذلك الحين تحت اسمه . ومن الطبيعى أن « فرانجل » اعتذر عن ذلك وإن كانت هذه المؤلفات مما تسرع به إلى الشهرة ، ومن البديهى

أن الأدب هو الوسيلة الوحيدة لدستويفسكي كي يكسب قوت يومه ، وقد ظل حتى تلك الأيام في فاقة مدقعة فكيف يلومه ناقدوه على التوسل بمثل هذه القصيدة لينال حريته ؟ ولو أن ذلك الرجل نسى في المنفى لخسرت روسيا نخر كتابها .

في هذه الأثناء حاول أن يقتل الوقت قتلا فالأنباء التي ترد إليه عن صديقته تزداد سوءا فهو يتردد على العراف عله يعرف ما يخبئه له القدر وهو لا يقبل على التأليف والكتابة . وفجأة تذكر فتاه صغيرة ابنة أحد البولنديين عرفته إليها « ماريا » صديقته وطلبت منه أن يساعد في تعليمها فألقى عليها بعض الدروس فما إن ذكرها حتى ذهب إلى دار أبيها وسأله أن يرسل إليه الفتاة يومياً ليستمر في تعليمها . وكانت الفتاة بهية الطلعة متوردة تحب الضحك مع معلمها ومغازلته في بساطة فهي كشعاع من الشمس نفذ إلى داره . ويظهر أن الفتاة كانت تكن حباً لأستاذها وتملك أمل « فرانجل » في أن يعدل « دستويفسكي » عن حبه المخيف « لماريا » وقام « فرانجل » في رحلة قصيرة غرامية . فما عاد وجد مأساة خطيرة ، فقد رأى الفتاة وقد غارت عيناها ونحل جسمها وتقاصت عظامها . وأبدى « دستويفسكي » أنه حاول عبثاً أن

يعرف السر فى ذلك فلم يوفق . ولكن الصديقين اجتمعا الآن على الوقوف على سرها ، وأخيراً قصت عليهما قصتها فقد أحبها ابن عمدة المدينـــة وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره واتصل بها ثم لم يلبث أن هجرها . وللغلام سائق للعربة وهو شركسى شيخ وقف على علاقتهما ، إذ كثيراً ما ذهب بأمر من سيده ليأتى بالفتاة إلى الموعد وفى مرة من هذه المرات هددها بأن يخبر أباها إذا لم تخضع له وهى فتاة صغيرة ضعيفة الإرادة ، فلم تقو على معارضته ، واستمر السائق يستغلها لنفسه وهى تكرهه وتخشاه . باحت بهذا السر ، ثم توسلت إليهما بأن ينقذاها من هذا الوحش ، وقد فعل « فرانجل » بما له من نفوذ ، وأبعد الشركسى عن البلدة ، وبعد سنة من هذا الحادث زوجها أبوها بضابط شيخ من القوزاق رغماً عنها فصارت تغازل من تشاء بينما زوجها يتلظى من الغيرة .

فى آواخر ديسمبر من سنة ١٨٥٤ . تحتم على «دستويفسكى» أن يفارق صديقه وأن يذوق ألم الوحدة فى تلك القرية النائية ، إذ تقرر نقل « فرانجل » إلى « بطرسبرج » . وحزن الصديقان لهذا الفراق حزنا عظيم ووصفه فرانجل بقوله : « كان هـذا الفراق

مريراً إذ كنت عندئذ شابا قويا ممتلئا بالآمال المزدهرة بينما هو الكاتب العظيم الموهوب محتوم عليه أن يفقد صديقه الوحيد وأن يمكث فى زى جندى بسيط مريضاً مهجوراً مبعداً فى « سيبريا »

ظل الصديقان طول يومهما يرتبان الحقائب دون أن يتكلما ، فإذا حانت ساعة الفراق تعانقا وتواعدا على أن لا ينسى أحدهما الآخر وقد بللت الدموع أعينهما ، ثم جلس «فرانجل» فى العربة الزاحفة وقبل صديقه المسكين للمرة الأخيرة ، وسارت العربة سريعاً . والتفت الراحل المرة الأخيرة كى يتبين منظر صديقه فإذا هو واقف حزين لا يكاد يرى فى ضوء النهار الخافت فيما بعد الظهيرة .

انفرد «دستويفسكى» بنفسه وأفكاره فى هذه البلدة الحقيرة ، فمن الطبيعى أن يتحول بفكره نحو تلك المرأة التى تتجه إليها جوارحه وهى بعيدة عنه فى بلدة «كوزنك» وهو يواليها بالرسائل الملتهبة التى تعبر عما فى نفسه ، لم يعد له صديق قريب غير صورة هذه المرأة ، أما رسائلها فهى مبعث سرور وألم ، ففيها اعتراف وتقدير لإخلاصه وهذا ما قد يبعث السرور فى نفس المحب ، وفيها ألم إذ لا تفتأ هذه المرأة تذكر صديقها الجديد المدرس وتصف إخلاصه لها وعنايته بها .

وهى تكتب إليه لتسأله كصديق : ماذا تفعل لو تقدم إليها أحد الناس يخطبها لنفسه ؟ فإذا قرأ هذا الخطاب ارتمى على مقعد وأجهش بالبكاء وكان شعوره الأول أن يناضل ويقاوم فهو قد ظل يعبدها عبادة مدة سنتين فكيف يتخلى عنها الآن فى سهولة ؟

حاول الهرب لكى يصل إليها فى سرعة ولكن عقله عاد إليه فعدل عن فكرته وسعى للحصول على اجازة بالسفر وأخيراً أجيب إلى طلبه . فأسرع ينهب الأرض نحو البلدة التى هى بها مقيمة فلما وصل إليها إذا به يشهد منظراً مسرحياً مفاجئاً ، فهى ترتمى أمامه وتقرئه ، وهى تقبل يديه أنها عالقة بحب المدرس وترى فيه غاية آمالها . وظل يومين يحاول حتى تمكن من إقناعها بأن تنتظر قليلا وعاد إلى مدينته وهو محمل بالهموم . فلما وصل إليها كتب رسالة حارة إلى منافسه لم يك نصيبها إلا رداً بارداً ، وعلى حين فجأة بدا له خاطر جديد . أليست التضحية لا تقل لذة عن الكسب ؟ أليس الحرمان أكبر من الامتلاك ؟ فلماذا لا يشجع صديقته على تحقيق رغبتها ويقنع هو بما يشعر به من ارتياح لرؤيتها سعيدة قريرة العين ؟ فهو يكتب لها رسالة يحثها فيها على أن تحقق غرضها ويخبرها أنه قانع بحبها من بعيد .

أتت هذه الرسالة بنتيجة غريبة لدى هذه السيدة فهى الآن تنبذ الفكرة التى أيدها وتلح عليه فى أن يقبلها زوجة بل خادمة ، وفى هذه الأثناء كان قد رقى الى مرتبة ضابط فى الجيش ونال بذلك قسطا كبيرا من الحرية ، فلم يدع الفرصة تفلت من يديه فليس أمامه إلا تحقيق هذا الزواج وهو يقترض المال لذلك ولقد رضى عنه أحد الأعمام وأمده بشىء من النقود ، وهو يكتب إلى أخيه ميخائيل فيصف له تفصيلا الملابس التى يشتريها ليفاجىء بها زوجته ولا ينسى وصف القبعة والمناديل من التيل الفاخر ، ويهتم لهذه الأمور التافهة فى الوقت الذى كان يتم فيه كتابه العظيم « بيت الموتى »

تم هذا الزواج وسافر الزوجان قاصدين المدينة التى يقيم فيها « دستويفسكى » . وفى أول ليلة اجتمع فيها هذان الحبان على انفراد إذا به يسقط فجأة على الأرض وتنتابه نوبة من أشد نوبات ذلك الداء الذى ليس له دواء ، والزوجة العروس واقفة حائرة تقاوم إحساس الاشمئزاز الذى يدفع بعض الناس إلى الهرب أمام مثل هذا المنظر المروع ، والزوج ملقى أمامها كالجثة التى فقدت الحياة والزبد يخرج من فمه .

٧

جهاد وحب

وصل « فرانجل » إلى بطرسبرج فى فبراير من سنة ١٨٥٥ فتصلت المراسلة بينه وبين صديقه فى منفاه السحيق . فأرسل إليه الصديق قصيدته بمناسبة تتويج القيصر الجديد ، ورجاه أن يرفعها إلى بلاط القيصر لعلها تكون سبيلا للعفو عنه ، وكان « فرانجل » قد سمع أنه من المنتظر إصدار عفو عام عن المذنبين السياسيين المبعدين الى « سيبريا » بمناسبة التتويج . ولكنه على اتصاله بالهيئات العليا لم يستطع أن يعرف أكان صديقه منهم . فإذا جاءته القصيدة عمد إلى السعى لإيصالها إلى أنظار القيصر ، وكان « فرانجل » يعرف من عظماء الدولة الكونت « توتيبين » وهو رفيق صباه فى المدرسة ، وهو رجل ظريف لم تغيره المناصب العليا . وقد أظهر اهتماما كبيرا « لدستويفسكى » وبذل جهداً كبيرا فى العمل على الإفراج عنه .

وحاول « فرانجل » أيضاً أن يتصل بالأمير « فون الدنبرج »

ليسلمه القصيدة ، وهو يعرفه منذ أيام الدراسة فتسلم الأمير القصيدة وقدمها للقيصرة « ماريا الكسندروفنا » . أما أنها وصلت نيد القيصر فهذا غير معروف ، وهكذا ظل « فرانجل » يسعى وصديقه يراسله شاكياً إليه ما يجد نفسه فيه من ضيق نفسي ومادي لا يأمل في زواله إلا بالإفراج عنه .

في يناير سنة ١٨٦٠ صدر إذن «لدستويفسكي» بأنه يستطيع الاقامة في إحدى ضواحي موسكو . ثم سمح له فيما بعد بالانتقال إلى « بطرسبرج » . ولكن الإقامة فيها لم تكن لتناسب صحة زوجته ، إذ ما لبثت السيدة بعد الزواج أن ظهرت عليها أعراض المرض الخطير الذي أودى بحياتها فيما بعد ، وهو داء السل ، لذلك اتخذ مسكنا لزوجته وابنها « باشا ايسايف » في موسكو . ثم عاد وحده إلى « بطرسبرج » حيث استأجر مسكناً في شارع « جروسوتويا » واستعد للعمل كي يفتح لنفسه طريقاً جديداً في الحياة .

كان العالم الروسي جديداً أمامه . فلقد ابتدأ العصر الذي سموه عصر الإصلاح ، ولم يبق على مسألة عتق الفلاحين إلا أيام ، ومع ذلك لم تكن هذه الاصلاحات إلا لتزيد الهوة بين عرش

القيصر وبين المفكرين من شعبه . فالقيصر يظن أن هذه الاصلاحات نعمة يجب أن يقدرها الشعب فيسبّح طول حياته بحمده ، والشعب يراها حقاً رد إليه ، ولكن في غير سخاء . وأمام هذه الآراء وقف ذلك المذنب السياسي الذي قضى عشرة أعوام في « سيبريا » في صف الوطنيين المحافظين على القديم ، ولكن هل كان مخلصاً لطبيعته ؟ أم هو دفع نفسه إلى هذا الموقف لينجو بها من نوازع نفسه ؟ إنه يزعم بأنه يقدس كل ماهو روسي حتى إن نزلاء السجون أنفسهم لم يخيفوه ، لأنهم من الشعب الروسي ولأنهم إخوانه في الشقاء ، وأنه سر حين اكتشف العظمة حتى في قلب قاطع الطريق ، ويزعم أنه استطاع تبين هذا الأمر لأنه روسي في أعماق قلبه ، والعقل قد يخطيء ، أما القلب فلا يخطيء أبداً . أحق هذا ؟ فلماذا إذاً نرى تلك الجماعة الكبيرة من أبطاله الثائرين على الحياة ؟

إنه وطني ، وإنه محافظ ، فهو يؤيد الكنيسة التي هي عماد المحافظين ، ولكن هل هو مؤمن حقاً ؟ إذا كان مؤمناً ، فلماذا يكتب للسيدة التي أهدته الإنجيل بعد خروجه من السجن ، فيقول : « أقول لك إني من أبناء هذا العصر ، أي إني

ابن الألحاد والشك حتى الآن ، وفيما أعتقد حتى القبر، ولكن الله مع ذلك يلهمنى لحظات من الإيمان الخالص ، وفى تلك اللحظات ، أوجدت لنفسى عقيدة فيها كل شىء واضح ومقدس وهذه العقيدة بسيطة ، هى الاعتقاد فى أنه ليس شىء أجمل ولا أعمق ، ولا أكثر دقة ولا أعقل ولا أشجع ولا أكمل من المسيح . . . ولو برهن لى إنسان أن المسيح بعيد عن الحقيقة ، أو أنه ثبت لى فعلا أن الحقيقة بعيدة عن المسيح لآثرت أن أبقى مع المسيح على أن أكون فى جانب الحقيقة »

هذه العقيدة سنراها باقية معه . وهى أساس البحث الدينى الذى نقرؤه فى رواية « الأخوة كرامازوف » آخر وأكبر مؤلفاته

بين هذه التيارات المتضاربة يبتدىء « دستويفسكى » حياة الأديب . وهو ينتظر أن يستأنف هذه الحياة من حيث تركها ، فلقد كان اسمه فى فترة من الفترات يتردد على الأفواه ، وإذا كان الناقدون بعد ذلك نبذوه فلا شك أن حادث ذهابه إلى المنفى أثار العطف عليه ؟ إنه يريد أن يستأنف حياة الأديب من حيث تركها ؛ ولكن لماذا لا يجد تهافتا من أصحاب المجلات على المؤلفات التى فى جعبته ؟ ولماذا لا يريدون أن يشتروا بضاعته إلا بأبخس

الأثمان ؟ الأمر بسيط . إن عشر سنوات فرقت بينه و بينهم فهم نسوه ، وليس من اليسير أن يستعيد مركزه فى ذاكرتهم، وهكذا بدأ ثانية ذلك النضال المميت من أجل المادة والقوت اليومى .

على أن أخاه المحبوب « ميخائيل » يرى أن وسيلتهما للحياة الأدبية فى أن ينشئ مجلة لنفسيهما واخترا لها اسم فريميا (أى الزمن) وكانا مليئين بالنشط و بالآراء .

نشرا إعلانا عن المجلة يبديان فيه مذهبهما ، فهما معارضان للفكرة القائلة بأن روسيا يجب أن تسير وراء الغرب وتحاول تقليده ، وهما ينادیان بأن الأرض الروسية هى غير الأراضى الغربية . إن الوطن الروسى ليس أوربا فإن له عاداته الجميلة القويمة المقدسة ، وله حضارته الخاصة الصادرة من أعماق قلوب أهله . وهما كذلك ليسا من أنصار الفكرة السلافية التى تذم إصلاحات بطرس الأكبر، وترى فى كل اقتباس من الغرب رذيلة وتنادى بالفضائل القديمة القويمة فى الشعب الروسى

فالمجلة الجديدة تعبر عن آراء وطنية دون أن تكون غارقة فى الرجعية ، لذلك أقبل القراء عليها على الرغم من أنها أغضبت فريقين قويين من ذوى المذاهب .

أقبل القراء عليها وزاد انتشارها حتى بدا كأن الحظ بسم « لميخائيل » صاحبها ولأخيه رئيس تحريرها وأكبر كتابها . وابتدع « دستويفسكى » طريقة لجذب القراء فاتفق مع كبار الكتاب أمثال « تورجنيف » و « استروفسكى » و « جريجوريف » كى يشتركوا فى التحرير ، ثم عمد الى مقتبسات من مغامرات « كازانوفا » و بعض أخبار الجرائم ، ولامه الناقدون على ذلك ، ولكنه فى الحقيقة كان ينشر ما يلائم مزاجه ، وفى تلك الصحيفة نشر قصته الطويلة « محقرون ومهانون » وهى رواية فيها مزايا القصص التى تنشر تباعاً وعيوبها ، ففى بطلها البرنس « فالكوفسكى » نجد الخائن المعروف فى بعض الروايات الشعبية ، الذى تصل رذائله أحياناً إلى حد أن يتقمص شيطاناً ، ونجد صورة الفتاة « نللى » المصدورة التى تموت غماً بحبها المكتوم . على أن « دستويفسكى » وحده هو الذى يستطيع أن يصور ذلك التنازع بين الكبرياء والحنان. غير أن الكثير من النقاد لا تعجبهم هذه الرواية . وقد ذهب أحدهم فى نقده الى أن وصفها بأنها تحت المستوى الذى يعنى به النقد الفنى . والحقيقة أن الفرق بينها و بين رواية « بيت الموتى » كبير ، فأين هى من تلك التى كأنها قطعة

من جحيم « دانتى » ؟ ولكن « دستويفسكى » كان فى ذلك الوقت لا يعبأ بالنقاد بقدر ما يعبأ بالجمهور الذى أقبل على صحيفة أخيه.

كيف كان يعيش فى تلك الأيام التى ينصب فيها المال بين يديه ؟ نخطىء التقدير لو اعتقدنا أن علائم الثراء ظهرت عليه ، فالمال لديه وسيلة لإضاءة السهر على المائدة الخضراء ووسيلة لاحتساء الخمر ، ووسيلة لكى ينعم بالنساء .

هل حدثت عندئذ فى حياته تلك الحادثة المروعة التى وصفها فى صفحات من كتاب « الشياطين » وأحجم ناقلو هذا الكتاب إلى اللغات الأوربية عن نقلها ؟ هل حدث أن اعتدى « ستافروجين » على فتاة صغيرة فإذا زالت سورة اللذة شعرت بفداحة عملها ويئست من حياتها ، فانتحرت شنقاً فى غرفة ، بينما الفتى فى الغرفة المجاورة ينتظر أن يتخلص منها بالموت ؟ أم « ستافروجين » هذا ليس إلا اسماً يختفى تحته مؤلفه .

يرى بعض الكتاب أن هذا الحادث وأمثاله من الحوادث الواردة فى بعض رواياته ليست إلا اعترافات مقنعة ، وأن هذا الكاتب العظيم كان يجد فى نفسه حاجة إلى ارتكاب الآثام فلا يرتكبها حتى يندم على فعلته . يقول بعضهم إن فيه عنصراً من الشيطان

و إن الرجل كان قادراً على أن يأتى كل شىء من أنواع الرذيلة ، و إن نزعته هى نتيجة مرضية لا شك فيها . أليس الصرع دليلا على مرض نفسه ؟ ذلك المرض الذى لم يكن يخشاه بل كان على العكس يرحب به فى رهبة ، فكم من مرة وصف تلك اللحظة الدقيقة السابقة على النوبة حين يتقد ذهنه ويضىء كما تضىء النار ، فتبدو له حياته واضحة فى جزئياتها ، وتبدو ذاكرته صاحية صحواً عجيباً ثم يتلوها العدم حيث تقف الحياة ! ثم بعد ذلك يظل يوماً أو يومين وكأن الذاكرة لوح قد محى ما عليه من نقوش !

إن ذلك المجهود العقلى الذى كان يقضى فيه نهاره يدفعه إلى أن يكون دائم القلق فى عاطفته ، لذلك نجد له فى هذه الفترة بصفة خاصة كثيراً من المغامرات الغرامية . فنحن نذكر ذلك الحب الوقتى الذى كان بينه و بين الممثلة « شوبرت » حيث قام بينها و بين زوجها المشاكس بدور الوسيط للصلح بينهما ، ولو أنه شعر بلمحة من الذكاء فى هذه الممثلة لأقبل على تأليف روايات تمثيلية لها ، فهذا الحب لم يدم طويلا لأن الممثلة لم تكن أهلا له ، ولكن نشأة هذا الحب تدل على أن عاطفته فى حاجة إلى الحب ،

وأنها ستسقط فريسة فى يد أول من يتقدم لالتقاطها ، فإذا تعرف إلى الأختين « سوزولوف » سقط فريسة لإحداهما ، وكانت الفتاتان من ذوى الذكاء ، أقبلتا على التعليم فكانت كبراهما أولى النساء الطبيبات فى روسيا ، أما الأخرى « بولين » فهى تطمح إلى أن تصير روائية ، وكانت فتاة متقدة العاطفة سريعة التأثر ، فما إن رأت « دستويفسكى » حتى أقبلت عليه .

كان ذلك فى ليلة دعى فيها لقراءة فصل من فصول « بيت الموتى » على جماعة من الطلاب ، وكان رائعاً فى إلقائه ورائعاً لأنه جرب ما تلاه على سامعيه . وتأثرت الفتاة بنزيل السجن أكثر مما تأثرت بالكاتب العبقرى ، فذهبت إليه فى إدارة الجريدة لتعرض شيئاً من كتاباتها ، واستقبلها المدير خير استقبال بل إنه احتفظ بقصة لها كى يفكر فى نشرها ، ثم كان اللقاء وكان الاتصال .

أعجبت « بولين » بالرجل وهو يتلو صوراً من حياته ، ولكنها ما كادت تخبره فى خلوة غرامية حتى نبذته وتحطمت صورة هذا المعبود ، أما هو فصار أسير هذه الفتاة يحاول أن يجتذب حبها بأية وسيلة . ولكن الفتاة لا تلبث أن تهرب منه إلى بلاد بعيدة تبحث

فيها عن الرجل الذى ترتجيه ، وهى تسلم نفسها لكل من تتوسم فيه أنه المثل الذى تنشده ولكنها لن تكون للكاتب المفتون .

سافر « دستويفسكى » إلى باريس باحثاً عن « بولين » فإذا قابلها واجهته بأنها تحب شاباً أسبانيا وأنها لا تستطيع أن تحب غيره . وهو يرتمى على قدميها باكياً مصرحا بأنه عالم أنه فقدها إلى الأبد ، ولكنه يعرض عليها صداقته وإخلاصه ! ويقضى فى باريس بضعة أيام ويكون الإسبانى قد مل الفتاة فيهجرها . فتذهب إليه باكية ، وتسافر من باريس فى صحبة صديق لا عشيق .

فى هذه الأثناء كان المرض يشتد على زوجته فى « موسكو » . وهذا الزواج الذى ابتدأ فى ثورة غرامية لم يلبث أن صار زواجاً مملا لدى الزوج . فالزوجة ضيقة الصدر ، برمة بكل شىء ، والزوج لا يهتم إلا لنفسه ولمؤلفاته ، فإذا عادا من « سيبريا » وقد ظهر عليها المرض تركها وسكن « بطرسبرج » وكان مع ذلك دائم السؤال عنها وعن ابنها «باشا» . قد يقال إن «ماريا ديمتريفنا» لم تكن بالزوجة الخليقة بمثل هذا الرجل العبقرى ، فيجب أن لا ننسى إخلاص هذه الزوجة التى كانت تقضى الليالى فى نقل

كتاب «بيت الموتى» من مسوداته على مابه من حذف و إثبات بين الأسطر ، مع شدة وطأة المرض عليها: فأى دليل أكثر من هذا على الاخلاص والحب ؟

٨

زواج ثان وهجرة

ازدهرت مجلة « فريميا » ولكن حظها من الحياة كان قصيراً ذلك أنه حدث أن قامت ثورة فى « بولونيا » وعمت فيها الاضطرابات فتبلبلت آراء المفكرين الأحرار من الروس . فمذهبهم يقضى بتأييد « البولونيين » فى ثورتهم وطلبهم للحرية ، بينما هذه الحرية فيها امتهان للوطن ، وفيها إنكار لما بذله الروس من دماء فى تلك البلاد ، فهذا « اسكندر هرزن » صاحب مجلة « الناقوس » التى كانت تظهر فى لندن وتعبر عن آراء الطليعة من الشبان أخطأ فهم الجمهور الروسى حين أيد الثورة « البولونية » وانتهى الأمر بناقوسه إلى الصمت ، أما محررو مجلة « فريميا » الذين كان مبدؤهم تأييد أرض الوطن فقد أخذتهم الحماسة

الوطنية ، وعملوا على أن يجذبوا الجمهور الروسى بأجمعه فكتب « ستراكوف » مقالا افتتاحياً فى هذا المعنى ، ولكنه اندفع يؤيد فكرته أكثر مما يجب فلام « البوتونيين » لأنهم اشتركوا فى الحضارة الأوروبية وأخذوا ببهجرها ، ونسوا أنهم من السلافيين فلم ينالوا من هذه الحضارة إلا تلك العيوب الملازمة لها واستولت عليهم فكرة التساهل الخداع .

لم يرق هذا الكلام للوزير واختلط عليه الأمر، فظن أن هذه الفكرة الرجعية إن هى إلا فكرة هدامة ثورية . فأمر بتعطيل مجلة « فريميا » وحاول « ميخائيل » عبثاً أن يزيل هذا اللبس . فلم تعد هذه المجلة إلى الحياة . غير أنه تمكن من الحصول على ترخيص بإصدار مجلة تحت اسم جديد هو « لايبوك » على أن هذه المجلة الجديدة لازمها النحس . وكانت هذه السنة متعبة جديدة فى حياة « دستويفسكى » .

كانت زوجته « ماريا ديمتريفنا » فى الطور الأخير من مرضها فذهب إلى موسكو لتغذيتها . وقضى وقته فى كتابة قصة يعبر بها بعض النقاد من أهم قصصه وهى قصة « الصوت الخفى » وفيها يعبر عن نفس مريرة يائسة . فى شخص مخلوق تعس خجول

ومزهو بنفسه، ينتقل من الكرم والسخاء إلى أبغض أنواع البخل والرذيلة، ومما يسترعى النظر أن هذه الصورة كثيرة الشبه بمؤلفها وهى تنزل بالقارئ إلى أعماق سحيقة من نفسه، ومع ذلك لم يكن لهذه القصة العظيمة من صدى عميق لدى قرائها فى ذلك الوقت .

كتب هذه القصة بينما كانت زوجته فى النزع الأخير ، ثم ماتت فأسرع إلى بطرسبرج كى يساهم فى مجلة أخيه ولم تمض ثلاثة أشهر حتى أصيب « ميخائيل » بمرض شديد أودى به إلى القبر . وهكذا فى فترة قصيرة فقد شخصين من أعز الناس لديه وشعر بأنه وحيد فى هذا العالم يواجه ثقل الحياة وحده . وأسرعت وفاة الأخ فى خاتمة المجلة التى اختفت تحت وطأة الديون كما ترك أخوه أسرة بلا عائل .

لم يتردد « فيدور » لحظة ، بل أخذ على عاتقه عبء هذه الأسرة ، وأبى فى سخاء إلا أن يعد بسداد الديون ، حتى ما كان منها غير أكيد ، ولم تكن موارده الضئيلة إلا قطرة فى بحر هذه الديون ، وزاد تساهله فى إقبال الدائنين عليه و إلحاحهم فى المطالبة والتهديد، بعد أن كان من المستطاع ألا يتحمل أى شىء، فبذل كل جهد لتدبير المال وأقدم فى تلك الظروف على بيع

حقوق طبع مجموعة مؤلفاته بثمن زهيد . وقطع على نفسه عهداً بأن يقدم رواية جديدة فى يوم معلوم . وهى الرواية التى عرفت باسم « المقامر » حيث وصف شعوره أمام المائدة الخضراء واضطر لكى ينتهى من عمله فى سرعة أن يسلك طريقة لم تكن معروفة بين كتاب الروسيين إلى ذلك الوقت فاتخذ كاتبة تعرف الاختزال هى « أناجريجوريفنا » .

كان فى إقباله على الكتابة والتحرير لكسب المال ، يكتسب شهرة ، ومن وقف أكثر الناقدين موقفاً عدائياً نحوه ، وكانت مؤلفاته تؤثر فى الشبيبة تأثيراً كبيراً وتقبل عليه الأندية والمجتمعات ، ومن بين الحوادث التى حدثت له فى حياته فى تلك الفترة تعرفه بأسرة « كورفين » وهى أسرة مدنية الأصل لها ابنتان كبراهما « أنا » والصغرى « صوفى » وهما فتاتان نالتا قسطاً وافراً من التهذيب ، تميل الكبرى منهما للأدب والصغرى للعلوم وبلغت الصغرى فيما بعد أوج الشهرة فى الرياضيات .

تعرفت « أنا » بالأديب حيث نشرلها فى مجلته قصة ، ثم دعته إلى منزلها وزارها الكاتب وأخذت الفتاة الكبرى تحتفى به ، بينما الصغرى ، وهى لا تتجاوز عندئذ الرابعة عشرة من عمرها ، شعرت

نحوه بشعور عجيب ، اعله بدء استيقاظ ذلك القلب الصغير وخفوقه من أجل الرجل ، وصار يتردد على البيت وفى إحدى هذه الزيارات تعرف إلى الوالدة التي ركنت إليه ، على خشونة مظهره ، وصار لا يمضى يوم حتى يزور الأسرة وكأن قلبه الناضج قد فتح لحب جديد ، هو حب الفتاة « أن » وذات ليلة أقامت الأسرة حفلة ساهرة وكان بين المدعوين لحضر فى ملابس السهرة ، فإذا دخل البهو احتل فتاته إحتلالا ، وظل يحدثها غير عابىء بأن واجبها يقضى بالاحتفاء بضيوف عائلتها ، وتقسيط وقتها بينه وبينهم . ودعيت الفتاة للرقص مع ضابط جميل فغضب لذلك وانتحى ناحية من الغرفة ، وظل صامتاً مغضباً لا يخاطب أحداً حتى لفت نظر الحاضرين بمسلكه . ووقعت سيدة المنزل فى حيرة ، وغضبت على فتاتها لاتصالها بذلك الضيف الذى لم يكن عضياً ، فإنه لا يعرف واجبات اللياقة ، أما الفتاة نفسها فكانت مترددة بين الفخر بهذا الحب والمضايقة لما سببه لها من متاعب .

كانت الفتاة فخورة بهذا الحب الذى يرضى كبرياءها ولكنها رفضت حين طلب « دستويفسكي » فى بساطة أن يتزوجها وفضلت عليه فيما بعد ضابطا فرنسياً بينما هنالك قلب

صغير يتألم لألم الكاتب الكبير ويرثى لحالته .

فى تلك الأيام كان الكاتب يبحث عن قلب يركن إليه ويعينه فى حياته المضنية ، ويخفف من وحشة الوحدة وكانت حاجته إلى الحب عجيبة ، ذهبت به إلى حد أن تعرف بصديقة لأخته متزوجة من رجل طال مرضه حتى صارت أيامه معدودات فأحبها وما لبث أن خطبها لنفسه عارضاً أن ترضى به زوجاً إذا توفى زوجها !

وعلى حين فجأة تنبه إلى قلب إلى جانبه يخفق له . ويخلص فى حبه هو قلب « آناجريجوريفنا » كاتبة الاختزال فتزوج منها ، وهكذا بدأ صفحة جديدة من حياته .

كتب عندئذ رسالة ودية إلى « بولين » التى ظلت صديقته الأبدية يصف هذا الزواج فيقول « إن كاتبة الاختزال فتاة فى العشرين من عمرها من أسرة طيبة تلقت دراسة حسنة فى المدرسة وهى طيبة القلب جداً ومخلصة بطبيعتها وكان العمل فى الرواية يسير على أحسن حال وعلى حين فجأة لحظت أنها تخلص لى الحب . وإن لم تبح لى بشىء قط ، وصارت تروق فى عينى ثم ازداد إعجابى بها . وبما أن حياتى أصبحت بعد وفاة أخى مملة

جدا وخاوية ، فإني اقترحت عليها أن تتزوج مني فوافقت وتزوجنا والفرق بين عمرينا مخيف ، ولكني أزداد ثقة بأنها ستكون سعيدة فإنها قوية الشعور تعرف كيف تحب » .

هكذا هجر الكاتب الكبير حياة الوحدة ووجد له شريكة : أكان ذلك عملا حكيما أم أقدم على الزواج في ساعة طيش ؟ إن تاريخ حياته بعد هذا الزواج يثبت لنا أنه وجد بين متاعبه وحياته المضطربة موئلا ثابتاً في قلب هذه السيدة التي عاشت إلى جانبه ، فهي مثال للزوجة المخلصة تبذل كل ما في وسعها لإسعاده ، فتنظم من حياته المعيشية بقدرما تستطيع ، وتعمل على راحته ومساعدته في عمله العقلي ، فهي التي تخط صفحات مؤلفاته وتنقلها وترتبها ، وهي تحبه حباً أكيداً وإن لم تكن تفهمه ، ومن الطبيعي أن تحاول أن تبعد بينه وبين النساء غير مكترثة لما يكتسبه زوجها من تلك المغامرات العاطفية من صور وخبرة بالحياة يملأ بها مؤلفاته ، ولكنها فيما عدا ذلك تجيب له كل رغبة . وكان هو من جانبه يقدر فيها هذا الإخلاص ، ولكن هل كان يتعشقها في وقت من الأوقات ؟ إن رسائله وإشاراته إليها تبعثان على الظن بأنها لم تكن في يوم ما موطن حب عميق في نفسه

فهو يشير إليها فى مبدأ زواجه إشارات ، فيها شىء من التماس العذر لزواجه ، على أن ميله نحوها لم يكن ميلاً عقلياً فقط ، بل هو ميل جسدى أيضاً فى ساعات الشعور بتغلب الجسد ، فهو يكتب لها رسالة زاعماً أنها المرأة الوحيدة المرغوبة لديه ، على أنه يرجوها فى خجل أن تظهر اهتماماً أكبر بملابسها ، ولكن كيف تستطيع « أنا » ذلك وهى فى شاغل بأطفالها وتدبير معيشة الكاتب والسهر على راحته ؟

كان لهذه الزوجة المخلصة فضل آخر على زوجها فهى أول من يسمع رواياته إذ يملى عليها تلك المؤلفات ، وهو يحب أن يعرف تأثير ما يمليه عليها ، فهى تمثل لديه جمهوره ، وفى تلك العينين مغرورقتين بالدموع أو تلك الابتسامة العريضة أو تقطيب الجبين أو الاهتمام الذى يطغى على الوجه ، يتبين الكاتب تأثير كتاباته فى جمهوره .

عاشت إلى جانبه زهاء عشرين عاماً وبعد أن ماتت نشرت مذكراتها عنه وقد ظنت أنها تسدى إليه خدمة عظيمة إذا هى أظهرت صفحة حياته بيضاء ناصعة وأن تفسر نقائصه وتلقى وزرها على الذين لهم اتصال بحياته — لا سيما النساء منهم ، ولكن هل

نجحت المسكينة فى غرضها ؟ وهل يكون « دستويفسكى» أعظم مما هو لو أنه مثال الرجل الطيب والزوج الصالح ؟

٩

الجريمة والعقاب

أثار زواج « دستويفسكى » من « أنا » غضباً لدى جماعة المنتفعين منه ، فهذا « باشا ايساييف » ابن زوجته الأولى يكتب إليه فى عتب أن موقفه الحالى لم يعد موقف الوالد ، وهذه زوجة أخيه تلومه على هذا الزواج بعد أن تكفل بها وبأولادها . فهؤلاء الناس الذين ظلوا شغله الشاغل فيقتر على نفسه كى يكونوا فى خفض من العيش ، لم يفكروا لحظة واحدة بسعادته وبحاجته إلى رفيقة تسهر عليه . على أن المال لديه لم يكن فى ذلك الوقت كثيراً ، فكل ما يصل إليه ينفق إما على هؤلاء الأقرباء أو على مائدة القمار . وقد اضطر إلى القيام ببضع سياحات فى البلاد الأوربية للاستشفاء ، مستصحبا زوجته ومقترضاً المال على مؤلفات لم يخرجها بعد ، فكان تعلقه بالمقامرة كثيراً ما يضعه فى أحرج

المواقف . ففى ذات ليلة دخل نادى القمار فى « بادن بادن » مدينة الاستشفاء المعروفة ، وقد خيل اليه أن الحظ يومىء إليه وبدأت أمواله تتضاعف ، فتوهم أن لا يمضى وقت قصير حتى يستطيع الوفاء بديونه ولبث ساعات فى تلك النشوة المصحوبة بالألم التى تنتاب المقامر ، وفى اللحظة الأخيرة بينما هو ينتظر الربح الكامل ، إذا بالحظ يدير له ظهره فيخسر كل ما ربحه من مال .

خرج المسكين فى تلك الليلة ، وارتمى على مقعد فى حديقة النادى . فإذا بفكرة ترتسم أمامه وتفتح له أفقاً جديداً ، هى صورة الطالب «راسكولنيكوف» الذى قتل مرة عجوزاً مرابية . ليستحوذ على شىء من المال يحقق به مطامعه فى الحياة ، ويفتح له طريقه .

كانت سنتا ١٨٥٦و١٨٦٦ من أهم السنين فى الأدب القصصى الروسى ، فقد نشرت مجلة «الرسول» القسمين الأولين من رواية الحرب والسلم « لتلستوى » فإذا ما انتهت منهما أخذت تبدء فى نشر « الجريمة والعقاب » تلك القصة الخالدة « لدستويفسكى »

تجد فى تلك القصة الحياة القذرة المتشعبة التى يحيها جمهور الناس فى المدن ، فيها الغرف الضيقة والأزقة والحارات التى يدب فيها الناس كالنمل ، فى كل مكان نجد الحقارة والقذارة . ولكننا

نجد أيضا الأسرار الغامضة التى هى كنه هذه الحياة ، فهذا الطالب المسكين « راسكولنيكوف » يذوق آلام البؤس فى غرفته كأنها السجن ، وتتعذب كبرياؤه لقلة الوسائل المادية فى يده وهو يبحث بفكرته عن وسيلة للخلاص .

هذه الحياة المليئة بالآمال ، القوية بالشباب ، يقف فى سبيلها أمر ضئيل هو شيء من المال يبدأ به حياته . ومع ذلك يقولون إن فى العالم عدلا شاملا ، وهذه جارته عجوز تجمع المال من الربا وتكتنزه لا لتحقق به غرضاً من أغراض الحياة ، ولا لتحدث فيها حدثاً ، بل تجمع المال لمجرد الحرص ، وتجمعه فتحجزه عن الناس ، فهل هى جديرة بهذا المال مع أن فى جوارها هذا الشاب البائس الذى يريد نفع نفسه ولكنه عاجز عن كل شيء إذ يعوزه المال ؟ ماذا يكون لو انقض على هذه العجوز فانتزع بيديه أنفاسها ثم استحوذ على مالها أليس ذلك حلالا ؟ هل يتردد الشخص فى فعل ذلك إذا كان قوياً جديراً بالحياة ؟ هل تردد رجل مثل « نابليون » فى عمل أراده شفقة على الآلاف من الناس الذين قد يصيبهم ضرر بسبب عمله ؟ « إنه سمح لنفسه بأن يأتى كل أمر فهو ينهب طولون وينظم مذبحة فى باريس وينسى جيشاً فى مصر

ويفرط فى نصف مليون من البشر فى حملة روسيـا ، ثم ينجو بنفسه فى « فيلنا » وهو يلعب بالألفاظ ولهذا الرجل نصبت التماثيل بعد وفاته إذن كل شىء مباح ، ومن الواضح أن هؤلاء الرجال ليسوا من لحم ودم بل هم من الحديد »

على ذلك تخطى الطالب حدود الفكرة إلى العمل ، وسلك مسلك الرجل القوى ، فقتل المرأة ولكن هل كان قويا حقا حيث قتلها ، مع أنه « سار إلى فعلته كما لو أن أحدا يجره إليها دون أن يستطيع المقاومة . أو كما لو أنه يقاد إلى الاعدام . » ؟

ثم بعد الجريمة لماذا نراه يخفى المال المسروق لا عن أعين الناس فقط بل عن نفسه ؟ لماذا نراه يهرب من الناس من غير أن تقتفى أثره أحد ثم ينتهى به الأمر إلى أن يسلم نفسه لرجل الشرطة ؟ ولماذا نراه بدلا من أن يرفع رأسه كمنتصر إذا هو يحنى الرأس فى ذل أمام « سونيا » الفتاة الساقطة ثم يرتمى ويقبل الأرض أمامها كما يفعلون عند التوبة . ويرضى النفى إلى « سيبريا » عن طيبة خاطر ؟

أراد « راسكولنيكوف » بفعلته أن يضمن المال والحياة الكاملة المطلقة ، البعيدة عن عوامل تثقلها ، وتدفع صاحبها من

القبر، البعيدة عن الفاقة والمرض . حياة تجعل من الإنسان بشراً ممتازاً إذ يقول « راسكولنيكوف » فى تفكيره «لم أقتل لأساعد أماً فإن هذا السبب حقير . لم أقتل كى أحصل على وسائل مادية، ثم أحصل على النقود ثم أصيرفيا بعد ذا نفع للأنسانية . كل هذا حقير . انى قتلت فقط من أجل نفسى . من أجل رغبتى وحدها قتلت . . . لقد دفعنى أمر آخر رغبت عندئذ أن أعرفه بأسرع وسيلة : ما إذا كنت حشرة حقيرة كسائر الناس أم أنى رجل ! هل أستطيع أن أحمل نفسى على أمر أم لا ؟ هل أستطيع أن انتزع السلطة أم لا ؟ هـــل أنا مخلوق يرتعش خوفاً أم ماذا ؟ » « راسكولنيكوف » إذن يطمح فى أن يكون الرجل الممتاز الذى وصفه « نيتشه » .

ولكن إذا كانت جريمته هى التى تجعل منه رجلا ممتازاً ، فما هذا الشقاء الذى عاش فيه بعد أن نفذ فعلته ، لماذا نراه يرتعش كلما اقترب منه إنسان أو شبح ؟

أثرت هذه الرواية تأثيراً عميقاً فى قرائها فهى فى قوتها ، وفى تتابع إحساسات بطلها ، حتى يندفع إلى الاعتراف ، وفى حياة حوارها، ما يقع على التمارىء وقعاً يختلف باختلاف حالته العصبية،

فالقارىء لا يتمالك أن ينتابه الخوف ، وربما دفع بعض القراء إلى المرض، وقد أثار هذا الأمر غضب النقاد فى ذلك الحين، حتى قال أحدهم إن هذا فن مستشفى المجاذيب ، ولكن هذا القول لم يمنعه من بلوغ أوج الشهرة فى بلاده، وأن يشتهر اسمه فيما بعد فى سائر أنحاء العالم

رأى قراء ذلك الوقت ، أن « الجريمة والعقاب » هى صورة لذلك العصر، وغضب بعض الطلبة من أن يكون بطل الرواية طالباً مجرماً ، وظنوا فى ذلك تعريضا بهم، وظن بعض الناس أنه سوف يكون لهذه الرواية تأثير سىء فى أخلاق الشبيبة ، ومن الصدف الغريبة أن حدثت على أثر نشر هذه الرواية جريمة فى موسكو ارتكبها طالب ، فحققت ما جاء فيها من حوادث ، ولكن الواقع أنه إذا كان « راسكولنيكوف » يشبه بعض الشبه أبطال الكتاب الذين يحبهم «دستويفسكى» إلا أنه صورة للرجل الذى وصفه « نيتشه » فيما بعد هذا العصر .

كان «دستويفسكى» فى هذه الأثناء يرتقى سلم الشهرة، ولكنه لا يجد ما يدير به أموره من مال، فديونه فى زيادة مستمرة وديون أخيه تثقله ، والدائنون لاينفكون عن الطلب ويهددونه بالسجن

وكل من زوجة أخيه بأولادها الكثيرين و إخوته وأولاد عمه وابن زوجته الأولى يطالبونه بحقوق وهمية ، و يرون فى زواجه الثانى استهتاراً بهم ونوعاً من الأنانية لا يرضيهم، فهم يغاضبونه و يحاولون إيذاءه بالقول : فهل من سبيل إذا أراد أن يحتفظ ببقية من السعادة فى حياته الجديدة إلا الهرب ؟ لقد استطاع أن يقترض ألفين من الروبل ، واعداً أن يقدم رواية ، ومع ذلك لم يستطع أن يفلت إلى خارج روسيا إلا بعد أن اقتطع أقاربه جزءاً كبيراً من هذا المبلغ ، و بدأ فى خارج روسيا حياة هجرة امتدت إلى خمس سنوات .

سافر من روسيا فى هذه المرة مثقل القلب ، فهو لا ينتقل فى بلاد أوروبا عن رغبة فى الوقوف على آثار الحضارة القديمة ، ولا هو يسافر اقتفاء لأثر عشيقة هاربة ، بل يرحل من روسيا وهى أحب البلاد إلى نفسه ، و يتنقل فى بلاد أوروبا القديمة وهو كاره مجبر على ذلك بحكم الظروف ، لا يعرف ماذا يكون من أمره غداً .

وهو يصحب تلك الزوجة الوفية فى حين أنه يرتعش لمستقبلها ، و يبتدىء حياة أشبه بحياة البدو الرحل فى غير أرض روسيا ، ولكنه لا يجد الراحة النفسية التى يجدها هؤلاء البدو فى تنقلهم ، فهو دائماً فى حاجة إلى المال ، وويل للمعدم فى أحضان المدنية .

أما الزوجة نفسها فقد أبدت على صغر سنها حكمة عجيبة ، فهى تساعد هذا الرجل المندفع ، تحتمل نزواته وتقابلها بثغر باسم ولاتحاول أن تتسلط عليه بل تهتدى بغريزتها إلى خير الطرق فى معاملته ، فهى تتركه يفعل مايروق له ، على أن هذا الزوج وقد جاوز الأربعين من عمره لا يزال يقدم على نزوات غريبة . فهو يندفع مثلاً فى المقامرة اندفاع المجنون ويرتاد جميع دور المقامرة فى المدن التى يمر بها زاعماً أنه يريد أن يصلح من حظه العاثر ، ففى « همبورج » مثلاً اضطرا لأن يسكنا حجرة حقيرة بعد أن فقد الزوج ماله ، ورهنت الزوجة ثوبها الأخير ولم ينجهما من هذا العسر إلا نجدة من صديق، بعد أن كتب إليه الزوج رسالة يحمر لها الوجه خجلاً

مثل هذا الموقف السيء كان فيه ترضية للزوجة إذ لا يلبث الزوج أن يندم على خطئه ، ويستغفر تلك التى تحتمل نتائج عمله ويظهر عطفاً وحباً عميقين ، ولرسائل التى كتبها من «همبورج» من أكثرها حناناً على زوجته . ووسط هذه المتاعب وضعت الزوجة طفلتها الأولى التى لم تعش طويلاً ، وبعد ذلك انتقلا من « همبورج » إلى « درسدن » حيث مكثا مدة طويلة ثم

منها إلى « جنيف » ثم إلى «فلورانس» ثم عادا إلى « درسدن »
وكانا فى رحلاتهما الطويلة يشعران دائماً بأنهما فى أرض غريبة
فهو لم يكن يفكر فى غير روسيا ولا يحلم إلا باليوم الذى يعود فيه
إلى بلاده ومع ذلك كانا يبتعدان عن عشرة الروس فى تلك المدن
لأنه كان يحتقر هؤلاء المهاجرين الذين فضلوا الأرض الأجنبية
على أرض بلادهم ويعتبرهم خونة للوطن المعذب .

١٠

الساذج

فى وسط تلك الحياة المضطربة وتلك الحاجة الملحة دائماً إلى
المال ، لم يكن أمامه إلا أن يكتب ويكتب أولاً ليعيش ، وثانياً
ليخرج تلك الصور المتزاحمة فى رأسه الكبير ، فعلى ضفاف نهر
« الآب » جاءته فكرة قصة « الساذج » وأتمها على ضفاف
بحيرة « ليمن » وهى قصة اعتبرها أحد النقاد أعظم قصصه ، تقوم
على بطل عجيب هو الأمير « مويشكين » شاب طيب
القلب مصاب بداء الصرع الذى يشكو منه مؤلفه ، وكان يعالج

منه فى مستشفى بسويسرا . ثم عاد إلى بلاده دون أن يتم الشفاء، وهو فتى وديع خجول صريح كصراحة الطفل، له عينان زرقاوان كبيرتان إذا نظر إلى أحد لايحول عنه نظره وصوته رقيق هادىء.

ماذا يكون مسلك مثل هذا الرجل فى الحياة ؟ مسلكه فى الحياة أن يكون كثير الزلل فينظر اليه الناس فى استخفاف وهو لا يعرف كيف يسلك فى المجتمعات وترى الناس يتسئلون من حوله ما فائدة مثل هذا الرجل فى الحياة الدنيا ؟ على أن البرنس « مويتسكين » إذا تكلم فى بساطته خيل اليك أنه خير من أولئك الذين يدعون الحكمة . فهو إن يكن حجر عثرة فى سبيل المجتمعات فإنه مثل الحق إلى جانب الزيف ، وجهه بأمور الحياة لايبعث على السخرية بل يبعث على الاشفاق. وبساطته فى الاتصال بالناس تفتح له صدورهم ، وبعده عن أى مظهر من مظاهر السفسطة يخلق له قوة عجيبة .

إلى جانب هذا البطل تظهر شخصية « نستسيا » الساقطة و « روجوشين» أحد عشاقها . ويحب الساذج هذه المرأة الساقطة ولكن ما هو الحب لديه ؟ ثم يمتلىء هذه المرأة التى تعبث بالرجال عشيق تلدغه عقرب الغيرة ، ثم نرى هذين العاشقين المتنافسين

من قبل يمضيان الليلة ساهرين إلى جانب الجثة التى « كأنها لفظت من بحر الشهوات » ومع أن البرنس « موشكين » يعيش بين هذه الجماعة من الناس، بشهواتهم الجامحة وعواطفهم المتقدة، فإنه الوحيد بينهم المسيطر على عواطفه البعيد عن كل شهوة .

هذا هو اللغز الذى يضعه « دستويفسكى » أمامنا : رجل ساذج ولكنه يبدو مثال الحكمة ، وأناس عقلاء يبدون فى مسلكهم كالمجانين ، فأى حياة أحق بالتقديس ؟ أهى حياة ذلك الساذج أم حياة هؤلاء القوم ؟

تسير حياة هذا الأمير وسط هذا الخضم من الانسانية المضطربة ، ويصور الكاتب هذا الخضم بطريقته التى لا تبارى، وتسير الحوادث بهذا الأمير كما تسير حوادث الحياة ، حتى أن القارىء ليجد قبل اللحظة الأخيرة شيئاً من الغموض يبعث على الملل ، فإذا كانت اللحظة الأخيرة التى يطبق فيها الجنون على رأس هذا الأمير العاثر الحظ ، كانت هذه الخاتمة وقع من أروع ما صوره كاتب .

فوبلت هذه الرواية عند ظهورها مقابلة فاترة من النقاد تنطوى على شىء من العداء فغضب لذلك ، وظهر هذا الغضب فى روايته التى وضعها بعد ذلك وأسماها « الشياطين » وهى رواية فيها جرأة

لا مثيل لها لأنها وقفت فى وجه الرأى العام . فالرأى العام فى روسيا يعتقد فى الحرية ، وقادة هذا الرأى من الأدباء ينادون بالحرية وهذا الكاتب الشريد يقف فجأة فى روايته ليهزأ بهذه الحرية الفكرية ويهزأ بقادة الرأى فيها ، وهو يقف وحيداً بين جموع الأدباء من أهل بلاده . وكانت الأخبار التى تأتيه عن روسيا غير سارة ، فالاعتداء على حياة القيصر « اسكندر الثانى » وهو الذى وهب الفلاحين الحرية ، وقع موقع الَهمِّ لدى الكاتب فى منفاه الاختيارى ، وغضب لحوادث الحريق التى كانت تقدم عليها يد خفية فى بطرسبرج ، وهكذا نراه يندد فى قسوة بأولئك الذين يقدمون على الجرائم ولو فى سبيل الحرية ، ويظهرهم فى صورة قبيحة .

ولم يكن غضبه قاصراً على دعاة الحرية إذ عمد فى التعريض فى هذه القصة بأكبر خصومه فى غير شفقة . فوضع صورة « لتورجنيف » فى شخصية الأديب « كارمزينوف » . وقد تأصلت العداوة بينه وبين « تورجنيف » من زمن لاختلاف مشربيهما « فتورجنيف » ارستقراطى النزعة ميسور الحال على الأقل فى مظهره وقد تخلق بأخلاق أدباء الغرب ، فهو قليل الكلام متمالك الشعور ، فى حين أنه هو من عامة الشعب عرف

السجن وعاش فى الأوساط الدنيا ، وهو بادى الفقر فياض العواطف لايعرف كيف يسلك فى المجتمعات ، فمن الطبيعى أن يثير الأديب الارستقراطى الذى بلغ قمة الشهرة ، حسد الأديب الذى وهب الناس عصارة قلبه فلم يجد إلا إعراضاً .

تعارف الأديبان فى بدء حياته الأدبية وعرف كل منهما قدر الآخر ، ولكن الحوادث باعدت بين الأديب الأرستقراطى الذى ذهب ليسكن ألمانيا ، والأديب من عامة الشعب الذى قيد إلى « سيبريا » لسجن والمنفى . ثم عاد « دستويفسكى » من منفاه فحاول الاتصال بكبار الأدباء ومنهم « تورجنيف » ودعاه إلى الكتابة فى المجلة التى أصدرها مع أخيه وذكر له فى رسالة أنه يعتبر قصة منه من أكبر الدعامات لانتشار مجلة « فريميا » وتنازل الأديب الأرستقراطى فأرسل إليه بعد حين قصة قدر لها أن لاتنشر فى مجلة « فريميا » بل فى « إيبوك » التى صدرت بعد تعطيلها ، ثم حدث بعد ذلك أن تقابلا فى مدينة « فيزبادن » حيث ذهب للاستشفاء على زعمه والاقبال على مائدة القمار فى الحقيقة . وهنالك خسر نقوده فاقترض من زميله خمسين روبل ، وكتب عندئذ رسالة يثنى فيها على

« تورجنيف » الذى أنقذه من ورطته بهذا القرض ، وما لبث أن نسى « تورجنيف » وقرضه ، فكانا يجتمعان فلا يذكر أن عليه ديناً ولا يحب الأديب الأرستقراطى أن يذكره بهذا الدين . ولكن هلا تبدو علائم الأعراض فى ابتسامة فاترة أو فى ضغط على اليد خفيف ؟

كان «دستويفسكى» سريع الحساسية . اللهم إلا فيما يتعلق بالمال . فلا بد من أنه أخذ على « تورجنيف » شيئاً من الترفع وجاءت تلك الثورة النبولونية التى أشرنا إليها ، وتقابل الأديبان فى بادن وجرى بينهما الحديث وإذا « بدستويفسكى » لا يتملك عواطفه ، ويصيح فى الأديب الكبير نحو الحزب الذى ينزع إلى تقليد الغرب . متهماً إياه بخيانة قضية روسيا ، ثم هو ينقل مشاحنته الشخصية إلى مجال الأدب ، فيرسم تورجنيف تلك الصورة الممسوخة .

كان ما حدث بينه و بين « تورجنيف » صورة لموقفه فى الخمسين من عمره بين أدباء عصره فى روسيا ، فهو لا يجد غير عدد قليل يعطف عليه ، أما أكثر الأدباء فيزدرونه وينظرون إليه على أنه معتوه لا رجاء فيه . ومما زاد فى حنق الأدباء عليه

تعصبه الشديد لكل ما هو روسى لا سيما تعصبه للكنيسة الروسية ونظام الحكم القائم ، فقد طرح آراء الشباب وكان من المنتظر أن يكون من أشد أنصار الحرية ، ثم هو يعيش فى أوربا هذه السنوات الطويلة ويجب أن يشعر بنعمة الحرية ولكننا نجده وهو فى تلك البلاد الغريبة لا يزداد إلا تعصباً لنظام بلاده لا عن دراسة وخبرة ، فالواقع أنه كان يعيش فى أوربا وينتقل فى أنحاء ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإيطاليا ويسكن مدناً عظيمة ، عرفت بما فيها من آثار مجد ومدنية ، ولكننا نجده يسير فيها مغمض العينين لا يشعر بشىء من جمال هذه البلاد ورقيها ولا يعرف من تلك المدن غير شيئين ، نوادى القمار التى يقبل عليها وهو يرتعش بما يشبه الحمى ، و بيوت الرهن التى يودع فيها ممتلكاته الضئيلة فى سبيل بضعة دراهم .

١١

الشـــــياطين

فى مستهل عام ١٨٦٩ لا نزال نجد « دستويفسكى » بعيداً عن وطنه متنقلا فى مدن أوربا مع زوجته المخلصة، فى شكوى دائمة فى رسائله وفى حاجة دائمة إلى المال ، وهو يقترب فى سرعة إلى الحلقة السادسة من حياته .

كان فى ذلك الوقت نحيل الجسم تظهر على وجهه الشاحب علائم المرض، وفى حركاته غير المتناسقة علائم الاضطراب العصبى . وقد صلع رأسه فجبهته تبدو عريضة أكثر مما كانت فهى تكاد تشغل نصف الوجه ، أما عيناه الرماديتان فلا تزالان محتفظتان ببريق الشباب ، وقد أخذت التجاعيد تخطط وجهه الشاحب غير أن أثرها لا يبدو كبيراً . إذ غطت جانبى الوجه والذقن لحية ذات شعر خفيف أصفر اللون تتخلله شعرات بيضاء

طلع عليه ذلك العام وهو فى فلورنس مدينة الفن والجمال وقد زارها من قبل غير أنه لم ير من معالم المدينة شيئاً . ولكنه

فى هذه المرة استطاع بتشجيع زوجته أن يتذوق تلك الكنوز العظيمة من تراث الفن الأوربى ، وأن يتم فى هذه الأثناء روايته « الساذج » التى كانت تظهر تباعاً فى مجلة « روسكى ڤزتنك » على أن إتمامه لهذه الرواية لم يعد عليه بشىء من النقود فقد تناول الكاتب من المجلة دفعات سابقة ، وكانت نتيجة الحساب أن ظهر أنه لا يزال مديناً لها بمبلغ لا يقل عن ألفى روبل ، وعليه أن يوفى هذا الدين مع ما ينتظر أن يقترضه بتأليف رواية جديدة يقدمها لناشره « كاتكوف » .

فى فلورانسا جاءته رسالة من « ستراكوف » صديقه وزميله القديم يعلن إليه إنشاء جريدة جديدة اسمها « ساريا » ويطلب إليه أن يكون أحد كتابها ، فامتلأ حماسة لهذا العرض الجديد الذى وجد فيه تقديراً لشأنه ، ونسى ماعليه من دين للمجلة السابقة وماعليه من دين أدبى بأن لايشترك فى غيرها من المجلات ، ورد بالقبول على أن يدفع إليه ألف روبل مقدماً ، ولعله كان فى ذلك مغالياً فى مقدرة الصحيفة أو فى قدر نفسه لديها ، فجاء الرد برفض طلبه ولكنه كان فى عسر ، وهو لا يتمسك كثيراً بالكرامة

إذا أعوزه المال ، نخفض طلبه إلى ثلاثمائة روبل فقبل الاتفاق وجاءته النقود .

جاء الربيع وتبعه الصيف ، وقد اشتدت حرارة الجو فى « فلورانسا » ولما يبدأ عمله ، وكانت زوجته على وشك أن تضع مولوداً ولم تحتمل حرارة الجو فى تلك المدينة ، وهى لا تستطيع الخروج معه فى أنحائها وهو لا يعرف الإيطالية . ولكنه فى حاجة إلى المال للانتقال منها فاتجه نحو كاتكوف مناشداً إياه أن يسعفه بمال للتخلص من موقفه ، فأرسل إليه « كاتكوف » كعادته مبلغاً من المال عونه فى سفره .

سافر الزوجان فمرا « بفينسيا » ثم « تريستا » وركبا القطار إلى « براغ » وقد عتزما أن يقضيا الشتاء فيها ولكنهما لم يجدا سكناً ملائماً ، فعادا إلى « درسدن » وفى تلك المدينة وضعت زوجته ابنتها « ليوبوف » وبدأ « دستويفسكى » فى كتابة روايته المجلة الجديدة .

انتهى منها فى ثلاثة أشهر وهى سرعة لم يعتدها فى كتاباته ، ولكن هذه الرواية التى تعرف باسم « الزوج الأبدى » تعتبر من أبسط رواياته . وبعدها كان يحتجز قوته للوفاء بدين كاتكوف

عليه . وتقوم هذه الرواية على سيدة لعوب توفيت بعد أن تركت رسائل علم منها زوجها الوفى ، أن كان لها سلسلة من العشاق ، و « الزوج الأبدى » هى قصة العلاقة بعد هذه الوفاة بين الزوج وأحد العشاق الذى يعتبر أباً حقيقياً لابنه من هذه الزوجة ، ولا نجد فى هذه الرواية ما تعودناه فى روايات « دستويفسكى » من العقد الجدية العميقة ، بل هو يعالج الموضوع فى ثوب فيه شىء من الفكاهة ، ويقتبس مواقف من رواياته السابقة ، على أن هـذه الرواية قد يكون فيها ذكرى بعيدة لزوجته المتوفاة .

ظهرت هذه القصة فى عدد فبراير من صحيفة « ساريا » فبدا موقفه غريباً لدى « كاتكوف » الذى ظل هذه السنوات الطويلة يمده بالمال ويعاونه فى حياته ، فهو لم يعده بأن يقصر انتاجه عليه ، ولكن من البديهى وهو مدين له أن يقصر رواياته عليه حتى يفى على الأقل بالدين ، وقد عامله « كاتكوف » كما ذكر صراحة فى إحدى رسائله معاملة ملؤها التقدير والسخاء ، فرأى أن يصحح مركزه مع « كاتكوف » بأن يضع رواية جديدة ، ابتدأ العمل فيها جدياً فى ربيع سنة ١٨٧٠ ، وفى الوقت ذاته وعد أصحاب جريدة « ساريا » أن يمدهم برواية جديدة واستحوذ

منهم مقدماً على شيء من المال ، ولكنه لم يكتب هذه الرواية قط واضطر إلى رد المال بعد ذلك بثلاث سنوات .

زار « دستويفسكى » فى « درسدن » أحد إخوة « أنا » زوجته وهو طالب بالمعهد الزراعى « بموسكو » فوصف فى أحاديثه حياة الطلبة فى تلك العاصمة وميولهم الثورية . ورسم صورة جميلة لزميل له اسمه « إيفانوف » ثم حدث بعد ذلك بشهور أن روعت روسيا بأسرها لخبر جريمة حدثت فى المعهد الزراعى حيث قتل هذا الشب ، وألقيت جثته فى بحيرة قائمة بحديقة المعهد ، وكان قتله على يد زميل اسمه « ناشيف » وثلاثة من الرفاق ، وظهر أن الخمسة ألفوا جمعية ثورية ثم قتت حسبة « إيفانوف » فرأى زملاؤه التخلص منه ، وهرب « ناشيف » إلى الخارج وقبض على الآخرين وعلى من كانوا معهم فى هذه الجمعية وقدموا للمحاكمة .

اهتزت روسيا لهذه الجريمة واهتز لها « دستويفسكى » بنوع خاص لأنها تحقق آراءه التى انقلب إليها وصار يعتقدها فلقد ذكر فى رواية « السذج » أن الروح الثورية ملازمة للجريمة ثم إن أثناء تسليبه الغضب على « إيفانوف » القتيل ما أثر فى

أعصابه الضعيفة تأثيراً قوياً عند سماعه لخبر هذه الفاجعة ، وكان عندئذ يبحث عن موضوع لروايته التى عزم على تقديمها « اكاتكوف » فإذا بتلك الحوادث تقدم إليه موضوعا .

ظن أنه سوف ينتهى من روايته هذه فى ثلاثة أشهر كما فعل فى روايته السابقة ، ذلك لأن فكرة أخرى كانت تزاحمها فى عقله فهو يتكلم فى رسائله كثيراً عن رواية عظيمة يريد وضعها تحت اسم « الإلحاد » يصور فيها حياة روسى من الطبقة الوسطى يتحول من الإلحاد إلى الكاثوليكية ، ثم يتحول منها إلى الاعتقاد « بالإله الروسى » .

اختمرت هذه الفكرة لديه وطغت على الرواية التى كان يضعها « اكاتكوف » ثم تقمصت فى ثوب آخر فهو يفكر فى سلسلة من خمس روايات يضعها تحت اسم « حياة خطىء كبير » وأخذ يضع لهذه السلسلة مذكرات مطولة تصف بدقة ما سوف تكون غاية هذه السلسلة ، ولا تزال هذه المذكرات موجودة حتى الآن ، أما روايته « اكاتكوف » وهى المعروفة باسم « الشياطين » فلم تكن فى رأيه من الأهمية بحيث يتفرغ لها .

ولكننا نجده على حين فجأة يهتم اهتماما كبيراً برواية

« الشياطين » ويؤجل فكرة الرواية الطويلة ، ولكن الرواية
تتعدل فى يديه وتتخذ وجهة أخرى وصفها فى إحدى رسائله حين
قال « لقد ظهرت لى فى الصيف شخصية جديدة تزعم أنها جديرة
بأن تشغل مكان البطل الحقيقى للرواية . حتى أن البطل السابق
وهو شخص عجيب لكنه لا يستحق لقب البطولة تزحزح إلى
مكان ثانوى » ثم نرى « دستويفسكى » يلبس بطله الجديد ثوب
البطل فى رواية « حياة الخاطىء الكبير » .

لم يتم دستويفسكى رواية « الشياطين » إلا بعد عودته
لروسيا ولم تنشر فى مجلة « كاتكوف » إلا فى أوائل سنة ١٨٧١
وتوالى نشرها حتى السنة التالية .

ذكرنا من قبل أن هذه القصة تقوم على حادث المؤامرة التى
حدثت فى موسكو وذهب ضحيتها أحد المتآمرين . لذلك نجده
رسم شخصيتى « تروفيموفيتش » و « فيرشوفيتسكى » من واقع
الحياة . أما شخصيات المتآمرين الآخرين فهى صور لأشخاص
عرفهم من قبل فى تلك الجماعة التى عاشرها وأودت به معاشرته
له فى السجن . وقد وضع صورة الفوضوى الذى تكلم عن أفكاره
هى شخصية « شاتوف » وهى صورة للفتى « إيفانوف » ولكن

المؤلف ضمنها فى الواقع صفات كثيرة لنفسه وهو الشخص الوحيد الذى يشعر القارىء بعطف حقيقى عليه . وقد وصفه بأنه فى العادة بادى الاكتئاب كثير الصمت ، ولكنه أحياناً إذا ما هوجم فى عقيدته بدا عليه التهيج العصبى ، واندفع فى الكلام بغير قيد ، وهو فى مبدأ الأمر اشتراكى متحمس ويتولى كما فعل «دستويفسكى» تدبير أمور مطبعة الرفاق ، ثم يتحول فى رأيه ويصير متعصباً للنزعة السلافية ، ويتخذ من اعتقاده فى الشعب أسساً لعقيدته بالله

هذا التقارب مما يبعثنا على القول بأنه أراد أن يصور نفسه أو يصور صورة جميلة لنفسه فى ضحية تلك الرواية ، ثم إن هذه الرواية فضلا عن ذلك مليئة بالصور التى أراد أن ينال بها من خصومه ،وقد ذكرنا من قبل تلك الصورة التى رسمها «لتورجنيف» وفى مكان آخر يذكر خطبة لأستاذ مجنون ، فينقل عباراتها من خطبة ألقاها فعلا أستاذ فى جامعة بطرسبرج قبل ذلك بسنوات . ثم إن القصائد التى يتداولها الفوضويون ليست إلا مقتبسات معدلة لأشعار نشرها شاعر روسى اسمه « أوجاريف »

على أن شخصيات الرواية الأساسيين ليسوا إلا صوراً خلقها عقل المؤلف « فستافروجين » هو صورة « لراسكولنيكوف » بطل

الجريمة والعقاب إلا أنه فقد حبه وتقديسه لنفسه ولكنه لا يزال عبداً لها ، وإن زالت الغشاوة عن عينيه ودخل على نفسه اليأس

لاقت هذه الرواية عند ظهورها نجاحا شجعه على الاهتمام بالحالة السياسية فى بلاده . فاتجه فى السنوات السبع من حياته بعد ذلك إلى السياسة وهذه الرواية فى مجموعها قطعة من الأدب العالى ولكنها من مؤلف بلغ القمة فى كتاباته السابقة .

١٢

يوميات مؤلف

شعر « دستويفسكى » بحنين نحو وطنه لا يدفع فى السنوات الأخيرة من حياته فى أوروبا وقد كتب من ميلانو يقول إنى لأشعر هنا بالخمول وضيق الذهن . وقد فقدت الاتصال بروسيا وإنى فى أشد الحاجة إلى الجو الروسى وإلى الشعب الروسى ! ووصف مقامه فى أوروبا بأنه شر من نفيه فى « سيبريا » ثم نراه يوازن بين حياته فى المدن الأوروبية وحياته فى بطرسبرج وهو فى السجن فيفضل الأخيرة على الأولى . وفى رسالة من

« درسدن » يتحدث عن صحة زوجته وحنينها إلى بلادها لا سيما وهى على وشك أن تضع مرة ثانية ، فقرّ لديه تحت هذه العوامل أن يعود إلى بلاده مهما كانت الظروف ، وأخذ فى محاولاته الدائمة لاقتراض المال ، وأخيراً جاءه منه ما يكفى لرحلته ، فغادر « درسدن » فى ٥ يوليو سنة ١٨٧١ قاصداً بطرسبرج و بعد سفره يومين وصل إليها، و بعد أسبوع من وصوله وضعت زوجته غلامها الأول

عاد « دستويفسكى » بعد خمس سنوات قضاها فى أوروبا وهو المؤلف العظيم الذى كتب روايات « الجريمة والعقاب » و« الساذج » و« الشيطين» وصار بلا ريب من أظهر الشخصيات فى الأدب الروسى ، وتوطدت حياته إلا فى أمر واحد هو حاجته الدائمة إلى المال ، فهو لا يستطيع أن يحصل منه إلا على قوت يومه ، على أن زوجته « أنا » ما لبثت أن تولت تدبير الناحية المالية من حياته ، فتوطدت هذه الناحية أيضاً ، وهدأت على أثر ذلك عواطفه ، فلا تجد تلك العواصف العجيبة التى كانت تطغى على حياته وهو فى شرخ الشباب .

أخذت زوجته فى تدبير أموره فبدأت باتخاذ منزل خاص، ولم يكن ذلك بالشيء اليسير فى حالتها عندئذ ، فهما لا يملكان أثاثاً

وقد انتهب ما كان لهما من متاع أما الدائنون وأما الأقارب، فاشترت « أنا » متاعاً جديداً باسمها لتحفظه من الدائنين وتولت هي أمر تدبير المال، فما أن جاء الدائنون ليهددوا ويتوعدوا ويحصلوا على أقصى ما يمكن الحصول عليه من مال فريستهم السهلة، حتى وجدوا أمامهم امرأة تعرف كيف تدقق وتحسب في عقل وحكمة، لا رجلا يشد شعر رأسه في يأس ويقطع على نفسه وعوداً غريبة لا يستطيع تنفيذها.

ولم تلبث أن تولت أيضاً الاتفاقات الخاصة بمؤلفاته، فقد ثبت لها جلياً أن زوجها لا يعرف كيف يفاوض في بيع كتبه، وأنه مع شهرته الكبيرة لا يزال أصحاب الصحف يستغلونه. ولذلك نراها بعد ظهور القسم الأخير من رواية « الشياطين » في عدد ديسمبر سنة ١٨٧٢ من مجلة « روسكى فيستنك » قد فكرت في أن تقوم هي بنشر هذه الرواية في شكل كتاب. ومما شجعها على ذلك أن القصة لاقت نجاحاً كبيراً لا بسبب حسن سبكها وحده، بل لما فيها من صور لأشخاص من الأحياء أو المتوفين منذ عهد قريب. ثم حدث في ذلك الوقت أن سمعت الحركة الثورية « نتشيف » وأخذت المحاكمة الروسية في محاكمته فعدد ذات

للأذهان تلك الجريمة التى اتخذت أساساً لموضوع الرواية

على ذلك قامت « أنا » بشراء الورق ، واتفقت مع إحدى المطابع ؛ وما تسلمت القسم الأول مما طبع حتى أعلنت عن الكتاب فى أكبر الصحف الصباحية انتشاراً . وحددت ثمن الكتاب فتواردت إليها الرسل فى صباح ذلك اليوم من الحوانيت الكبرى لبيع الكتب . فقابلتهم « أنا » وأصرت على أن يكون الدفع فوراً ورفضت قطعاً إيداع الكتب فى المكتبات لذمة البيع على أنها منحت المكتبات تخفيضاً يتراوح بين ٢٠ و٣٠ ٪ ، كل هذا بينما زوجها يغط فى النوم كعادته ، فلما استيقظ وأخبرته زوجه الخبر لم يصدقها ، حتى أظهرت له حزمة الأوراق المالية ؛ وذلك هو اليوم الذى وصفته « أنا » فى مذكراتها بقولها إنه يوم مشهود من أيام حياتها . ومن ذلك اليوم إلى أربعين عاماً من حياتها بعد ذلك ظلت « أنا » هى التى تقوم بنشر مؤلفات زوجها .

تغيرت وجهة حياة « دستويفسكى » بعد عودته إلى بطرسبرج بعض الشىء إذ اتخذ وجهة جديدة . فهو لم يعد يقنع بتلك الشهرة التى يجنيها الكاتب من مؤلفات خالدة ، قد لا يقدر صاحبها حق التقدير إلا بعد مماته ، بل رغبت نفسه فى تلك الشهرة القائمة

على تقدير معاصريه . فجاءته تلك النزعة التى ظهرت فى كثير من كبار المؤلفين وظهرت بصورة بارزة فى مواطنه « تلستوى » وهى أن يكون قائداً للحركة الفكرية فى عصره ، يصغى مواطنوه إلى كلمته كما يصغى الأنصار إلى نبيهم .

لذلك أخذ ينزع لا إلى التأليف بل إلى الصحافة ، وكان الأمير « ميشيرسكى » من هواة الصحافة والعاملين فيها ، قد أنشأ صحيفة أسبوعية اسمها « جرازدنين » وأراد أن يجد لها رئيس تحرير من الكتاب البارزين ، وعليه أن يحسن أن يجد من يعدل مقالاته فاتصل « بدستويفسكى » الذى قبل هذا العرض عن طيبة خاطر ، ولأول مرة فى حياة الأديب صار له عمل ثابت ، وأجر ثابت .

وابتدأ فى هذه المجلة سلسلة مقالاته الشهيرة تحت اسم مذكرات مؤلف .

كان « دستويفسكى » فى صيف العام الذى عاد فيه إلى روسيا ، قد انتقل مع عائلته إلى « ستاريا روسا » وهى بلدة مستشفية صغيرة واقعة على بحيرة ، ومن ثم لم يمكنه فى صيف العام الذى تولى فيه تحرير هذه المجلة تقضت أسرته ولم يستطع هو الانتقال

بل كان يزورها فى فترات طويلة ، وكان هذا الفراق من زوجته فى السنوات الأخيرة من حياته عسيراً عليه جداً ، لذلك نراه يرسل لها الرسائل فى فترات قصيرة يصف لوعته فى البعد عنها ويسأل فى لهفة عن أطفاله . ولعل أهم عبارة فى حياته هو أنه ذكر فى رسالته الشديد المرض عينه وإصابته بالحمى وأنه يخشى أن يصاب بسكتة قلبية . ثم كأنه خشى أن تصدق نبوءته فأرسل على أثر الرسالة برقية ينبئها بأنه فى صحة جيدة ويجب ألا تقلق من أجله فسيعود من مصيفه .

كانت أعماله فى المجلة فى حرارة الصيف بعيداً عن عائلته ، مرهقة له وهو قد عاش طول حياته طليقاً لم يتعود نظام العمل ولم يتعود أن يكتب فى نظام . وكان صاحب المجلة من رأيه وكلاهما شديد التعصب للسلافية فليس بينهما سبب للخلاف، غير أنه كان من الطبيعى أن يفضل مقالات نفسه على مقالات رئيس تحرير مجلته ، وكان دستويفسكى مثلاً يضرب به عمال المجلة فى شدة غضبه لأتفه الأمور . فليس من المستغرب أن نراه وقد قطع علاقته بالمجلة بعد وقت قصير .

وكانت رئاسته الأخيرة فى المجلة مما دعاه إلى أن يمل السياسة بعدئذ ، وتحول فكره مرة أخرى إلى جو القصص ووجد فرصة

جديدة عند ما زاره صديقه القديم « نكراسوف » وكانت الصداقة بينهما قد انقطعت على أثر عراك اتهم فيه « دستويفسكي » صديقه بأنه اشترك في وضع فكاهة لاذعة عنه، ثم تصافيا وقتاً ما ولكنهما لم يتقابلا طويلا ، والآن وقد صار « نكراسوف » رئيس تحرير الصحيفة الراديكالية الكبرى ، فقد جاء إلى صديقه القديم وطلب إليه أن يخصص رواياته القادمة لصحيفته . ولقد وصفت « أنا » في مذكراتها كيف أنها أصغت من وراء الباب وسمعت « نكراسوف » يعرض على زوجها مائتين وخمسين روبلا عن الملزمة ، وكان في ذلك الوقت يعطى أكثر من مئة وخمسين روبلا ، على أن « دستويفسكي » تردد في قبول لسببين وهما أنه أراد أن يستعلم من إدارة « روسكي فيستنك » عما إذا كان لديها من المواد ما يكفيها للعدد القادم وحينئذ يكون حراً في التصرف ، لأنه يرى الآن أن « كاتكوف » له حق الدين عليه لما قدمه له من المساعدات الجليلة . والسبب الثاني أنه يريد أن يعرض الاقتراح على زوجته ثم قالت « ودخل زوجي إلى غرفتي فحدثت بالترحيب . وبعد سجالٍ حتى صحت به في سرعة ماذا تسأل « نيفيليد » تبال في حال . فقال زوجي في تعجب قبل ماذا . قلت :

لقد سمعت الحديث كله من وراء الباب ، فصاح «فيدور» فى ألم كنت تسترقين السمع ! ألا تخجلين يا « أنا » ؟ قلت كلا ، ليس لديك أسرار تخفيها عنى ولو لم استمع لأخبرتنى بما حدث فلماذا تهتم إذن لاستراق السمع . إن هذا الأمر خاص بنا وليس من أمور غيرنا » .

ولم يستطع « فيدور » أمام هذا المنطق إلا أن يرفع يديه محتجاً وغضب « نكراسوف » لهذه القصة وقال لصديقه القديم لم أكن أظنك قط هكذا خاضعاً لسلطان زوجتك ، وقد ظهر أن « كاتكوف » اتفق مع «تاستوى» على رواية « أنا كارنينا » فلم يبق مجال لرفض ما عرضه « نكراسوف » وتم الاتفاق على وضع هذه الرواية ، غير أن صحة الأديب فى ذلك الوقت لم تكن تحتمل العمل ، إذ أن البرد فى بطرسبرج أثر فى رئته فأصيب بسعال مقيم ، واضطر للسفر إلى ألمانيا للاستشفاء فى إحدى مدن المياه المعروفة . وصار مرضه هذا يعاوده فيتردد على مدن الاستشفاء وما عاد من استشفائه اقترحت عليه زوجته أن ينتقلا إلى قرية « ستارايا روسا » حيث الجو أصح منه فى بطرسبرج ونفقات الإقامة زهيدة . ولم يكن « نكراسوف » فى سخاء « كاتكوف »

وعارض الكاتب هذا الاقتراح غير أن زوجته انتصرت عليه وهي تنتصر دائماً ولعلها لم تكن تقصد من هذا الاقتراح الاقتصاد في النفقة ، و إنما أرادت حمل زوجها على الوفاء بتعهده وإتمام روايته ، وتحقق هذا الغرض حين بدأ الأديب روايته « الشباب الغض »

١٣

الإخوة كارامازوف

انتقلت « أنا » بزوجها إلى « ستاريروسا » للاقتصاد في النفقات أو تشجيعاً له على البدء في روايته . ولكن ربما كان ذلك لعلة أخرى هي بعد زوجها عن أقاربه في العاصمة الروسية ، فهي منذ استطاعت الاستيلاء على الزوج و نتزعه من قبضة هؤلاء الأقارب الذين يعيشون عالة عليه . ومن ثم لا يريدون أن تستأثر به زوجته . ومنذ فرارها مع زوجها إلى خارج البلاد الروسية تمكنت من بسط سلطانها على هذا الزوج شيئاً فشيئاً . وليس ذلك عسيراً فهو في الظاهر عنيد وعبد لنزواته ، لأنه سريع الخضوع سهل القياد ، لاسيما في يد ماهرة كيد « أنا » وقد عادت إلى بطرسبرج

بعد أن توطد سلطانها على الزوج فليس من السهل أن ينازعها الأقارب هذا السلطان ، غير أنها لم تكن من أولئك الناس الذين يقنعون بانتصاراتهم بل تأبى إلا أن تشعر المهزومين دائما بهزيمتهم فأخذ أقارب « دستويفسكى » يمقتونها كل المقت وزوجها يخشاها فلا يستطيع مقابلة أهله إلا فى غيبتها ، وكان فى بطرسبرج يزور أحيانا زوجة أخيه المتوفى ، ولكنه لم يعد يعينها بالمال لأن أولادها يعولونها ، أما « بول إيسابيف » فما زال يبتز المال من زوج أمه العطوف وزادت حاجته إلى المال بعد زواجه،ودبر «دستويفسكى» له عملاً فى بعض المصارف غير أن « پول » لم يكن من الهمة بحيث يحتفظ بالأعمال طويلا فعاش عالة على زوج أمه .

وكان له أخ اسمه « أندريه » نجح فى الحياة كمهندس أما الصغير « نيقولا » فهو يعيش عالة على أخيه و يتقاضى منه مرتباً شهرياً ، وله أختان تسكنان « موسكو » أما الأخت الصغيرة فهى فى بطرسبرج تقابل شقيقها أحيانا ، غير أن زوجها لا يعترف « بدستويفسكي » وهى لاتطيق ذكر « أنّا » .

فى هذه الظروف كان من الطبيعي أن تفترق الأسرة فى سلام لو لم تقم بينهم قضية ميراث استمرت عشر سنوات ولم تنته إلا بعد

وفاته ، وهو ميراث الخالة « كومين » التى تزوجت من رجل غنى وظلت ترعى أولاد أختها وكثيراً ما أمدتهم بالمال فى ظروف صعبة وليس من المستغرب أن يفكر وأخوته دائما فيما يعود اليهم بعد وفاتها بلا عقب . ولقد رسم فى رواية « المقامر » صورة لها حيث وصف جدة غريبة الأطوار كان وارثوها ينتظرون فى مدينة القمار نبأ وفاتها بصبر فارغ ، و إذا بها تصل إلى المدينة محمولة فى محفة وأمام أعينهم تقامر بالميراث الذى ينتظرونه حتى الدرهم الأخير .

كادت نبوءته تتحقق فى السنوات الأخيرة من إقامته « بدرسدن » إذ بلغه من رسالة جاءته من صديق أن الخالة توفيت وأوصت بأر بعين ألف روبل لأحد الأديرة ، فأرسل رسائل إلى بعض الأقارب والمحامين يسأل فيها هل من المستطاع الطعن فى الوصية ، إذ لم تكن فى السنوات الأخيرة متمالكة لقواها العقلية ، ولكن ظهر له فيما بعد أن الخبر الذى نقل إليه ليس صحيحاً ، وعاشت هذه الخالة الى ما قبل بضعة أشهر من عودته إلى روسيا .

وما أن توفيت حتى أثارت وصيتها المعقدة نزاعاً مقيما بين الورثة وزاد فى النزاع أن زوجته هى المتولية رعاية مصالحه .

وكان لهذا النزاع العائلى أثر بارز فى رواية « الشباب الغض »

فان والد بطل الرواية ينازع أميرين فى أرض موروثة ، وفى القضية تعارض بين الحق القانونى والحق الأدبى ، فالقانون يؤيد « فارسيلوف » إلا أن رسالة خاصة من الموصى تظهر بوضوح رغبته فى إفادة الأميرين ، وفى حوادث تلك الرواية أيضاً ترسل فتاة رسالة إلى محام تستشيره فى الحجر على أبيها فتقع الرسالة فى يد غريبة ، وتعيش الفتاة فى خوف من أن يعلم أبوها بالأمر ، فتفقد حبه وتحرم فى وصيته .

غير أن رواية « الشباب الغض » ليست من مؤلفاته البارزة وأن كان موضوعها قائماً على تحليل العواطف ، ومن المعروف أن أقوى جانب فى رواياته العظيمة مثل « الساذج » و « الجريمة والعقاب » هو التحليل النفسى ، وإن كانت الحوادث قائمة على بحث خلقى ، ولقد سبق فى ذلك علماء القرن العشرين ، وكان يجب أن تبلغ رواية « الشباب الغض » أرقى المراتب بين مؤلفاته ولكنه فيها لا يبلغ القمة ، فما السر فى ذلك ؟ لعل السبب أن لم تكن لديه فكرة مسيطرة كما فى « الجريمة والعقاب » أو فى رواية « الساذج » ولقد وصف وضعه لهذه الرواية فى « مذكرات مؤلف » فقال « عند ما دعانى نكراسوف منذ ثمانية عشر شهراً

لتأليف رواية لجريدته كنت على وشك أن أبدأ روايتى « الآباء والأبناء » ولـكنى منعت نفسى وأشكر الله على ذلك ورأيت فى ذلك الوقت أن أضع رواية « الشباب الغض » كتجربة أولى لفكرتى ، فأخذت نفساً بعيدة عن الآثام ولكنها تخشى الفساد الأخلاق وقد بدأت مبكرة تنكر ضآلة مركزها وعدم مشروعيته ثم إن فيها من العمق مايسمح لها على طهارتها بالاعتراف بالخطيئة وتحتفظ بالخطيئة فى قلبها وتلعب بها فى أحلامها، وهى لاتزال بسيطة ولكنها جريئة وعاصفة ، كل ذلك وهى متروكة لقوتها الشخصية وعقلها الشخصى ، ومتروكة طبعاً ليد القدر ، هذه حال الملفوظين من الهيئة الاجتماعية ، وهم أعضاء وجدوا صدفة فى عائلات من باب الصدفة » .

على أنه لم يكتف بهذه الفكرة فنراه يقتبس آراء من مذاكراته عن رواية أراد تأليفها ثم عدل عنها وهى رواية « حياة خاطىء » ويدخلها فى روايته الجديدة ، فهو يعزو إلى بطل الرواية رغبة فى أن يكون من كبار الموسرين بشدة التقتير على نفسه ، ثم أن شخصية « فرسيلوف » الأب هى خليط من شخصيات رواياته السابقة ولذلك تجد فى هذه الرواية غموضاً حتى ليتعذر على القارىء بعض

الأحيان فهم الشخصيات . على أنه أظهر فى هذه الرواية براعة فى التحليل لم تعرف من قبل وسبق العلماء إلى وصف العقل الباطن ، ذلك العنصر الخفى الذى يتستر فى أعماق النفس الإنسانية و يطغى على الإنسان ، فيدفعه إلى أن يأتى أموراً و يقف مواقف لا يقرها عادة ولا يندفع فيها بمحض رغبته . وهو يسمى هذه الظاهرة بازدواج الشخصية ولا يرى فى هذا الازدواج مرضاً بل يراه جزءاً من الطبيعة البشرية ، ويذهب إلى أبعد من ذلك فلا يكتفى بالقول إن النفس البشرية فى مجموعها مزدوجة ، بل يرى العواطف نفسها مزدوجة أى تحتوى نزعات متعارضة ، فالحب فيه عنصر من الكراهية وفي الألم عنصر من اللذة وفى الذل عنصر من الكبرياء ، ولا يبالغ فى تأثير الحاسة الخفية وتسلطها على أفعال الناس كما يفعل المؤلفون المحدثون ، كما أنه لا يُنكر تأثيرها ، ولكنه يراها أقرب إلى الألم منها إلى اللذة .

أدلى بهذه الأراء فى كتابه فهل كان مبتدعاً ؟ لقد وصف « نوفاليس » المؤلف الألمانى العلاقة الوطيدة بين الحاسة الجنسية والألم ولا يتصور « دى موسيه » فى « اعترافات ابن العصر » الحب إلا مصحوباً بالألم ، والراجح أن « دستويفسكى » قرأ هذه الآراء وقد اعتبرت

فى الكتاب الغر بيين طفرة من طفرات الخيال ، فى حين أنه جعل لها أثر عميقاً واقعياً فى الحياة البشرية وقال بأنها من طبيعة الحياة الأجتماعية ، وهكذا عمّم ما اعتبره الكتاب الغر بيون صفة خاصة بفرد أو أفراد . ولقد اقتنع بهذه الآراء وتكلم عنها فى إسهاب في بعض وقائع من رواياته ، رأى الناشرون عدم نشرها وهى لا تزال مخطوطة ، كما تناولها فى كتاباته التالية لرواية « الشباب الغض » لا سيما في « مذكرات مؤلف » التى ظل سنتين ينشرها على الجمهور على أنها نشرة مستقلة لا مقال فى مجلة .

بينما كان « دستويفسكى » آخذا فى اتمام رواية « الشباب الغض » وضعت زوجه فى أغسطس سنة ١٨٧٥ طفله الأخير وهو غلام سماه « اليوشا » وهو الوحيد بين أبنائه الذى ورث مرض بيه ، وتوفى به فى الثالثة من عمره، وانتقلت الأسرة بعد ولادة هذا لطفل بقليل من بلدة « ستراياروسا » إلى بطرسبرج ، ذلك لأنه عمم على تنفيذ مشروع فكر فيه من زمن بعيد وحالت ظروفه لمالية دون تنفيذه، هو اخراج الصحيفة المستقلة التى تحوى مقالا من لمه تحت عنوان « مذكرات مؤلف » متضمنة آراءه السياسية الاجتماعية ، كما كان يفعل على صفحات مجلة « جرازدنين »

تولت زوجته « أنا » أمر الادارة فهي تشرف على أعمال المجلة جميعها ، ولعل أصعب واجباتها أن تحمل زوجها على تحرير مقاله في الوقت المحدد، ومع ذلك كان نجاحها في هذا الباب كبيراً وظلت أعداد المجلة تظهر سنتين متواليتين في انتظام غير منتظر حتى بلغ عدد قرائها أربعة آلاف في السنة الأولى وستة آلاف في السنة الثانية وكانت النفقات قليلة والربح كبيرا .

أثرت هذه المقالات في عصره تأثيراً عظيما وزادت من شهرته زيادة كبيرة ، وهي تبحث في موضوعات تهم جمهور ذلك العصر بعضها أدبي والبعض سياسي ، ولكنه بين حين وآخر ينشر قصة أو صورة لشخصية خيالية ، والموضوع الذي لا يفتأ يكرره كاتبها هو الشعب الروسي فهو يغالي في تمجيد هذا الشعب ، عاملا على الاقلال من شأن الطبقة المتعلمة فيه ، وهو يغرق في وصف فضائل الرجل الروسي العادي ويعتبرها فضائل قائمة على طبيعة نشأته في موطنه ، أما الرجل المتعلم فقد تلطخ برذائل المدنية الغربية وفقد علاقته بوطنه ، ولكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك أنه كان على علم بحالة الشعب الروسي ، أو أنه يعرف آلامه ومتاعبه ، بل كان خيالياً لا يفكر قط في الاصلاح ولا يهتم له ، والواقع أنه يهتم

للجانب الأخلاقى أكثر مما يهتم للجانب السياسى أو الاجتماعى، أما سياسته فهى تأييد النزعة السلافية والتعصب للجنس ، وهو يعتقد بآراء رجعية لا يمكن أن تكون فى صالح الشعب الروسى فيرى أن سيطرة النظام القائم عندئذ المؤيد بالكنيسة الروسية الرسمية هو جزء من حب الوطن ، ويرى مقاومة جميع الحركات التى ترمى إلى ادخال النظم الغربية فى روسيا ، ومع ذلك يمجد بطرس الأكبر ويشيد به مع أن بطرس كان من أكبر العاملين على إدخال النظم الغربية ، لكنه وأمثاله من الرجعيين يمجدون بطرس لفتوحاته والعمل على عظمة الوطن الروسى ، غير ملتفتين إلى أن ذلك يؤدى بهم إلى التناقض ، ويغالى « دستويفسكى » فى التعصب للجنس فهو يكره الاسرائليين ، ومع ذلك ينيدد بكل من تحدثه نفسه بالعمل على تحرير الشعب الروسى الذى يمجده ويرثى له .

لعل أحداث ذلك الزمن جعلت لآرائه الرجعية أثرا فى نفوس قارئيه ، فإن نشوب النزاع بين روسيا وتركيا فى ذلك الوقت ودخولهما فى حرب ، أثار الحماسة بين طبقات الشعب الروسى ، الذى رأى فى الحرب وسيلة لتحرير بنى جنسه الواقعين تحت حكم

الأتراك ، وكان للانتصارات الروسية وتقدم الجيوش الروسية حتى أسوار القسطنطينية ، رنة فرح فى قلوب الروسيين رددها « دستويفسكى » فى مقالاته ، ولكن الدول لاسيما انجلترا وفرنسا تدخلت فى الأمر وأوقفت روسيا عند حدها وانتزعت منها ثمرة انتصاراتها ، وحالت بينها و بين التوغل فى الدولة التركية ، فكان ذلك مما أثار حنق الروسيين ، وردد هذا الحنق «دستويفسكى» إذ حقق موقف هذه الدول من روسيا آراء طالما نادى بها .

فهل كانت هذه المغالاة مرآة لنفس الشعب الروسى ؟ الحقيقة انها لم تكن كذلك وتاريخ روسيا فى القرن العشرين يدل دلالة صريحة على أن « دستويفسكى » وغيره من الأدباء لا يمثلون الشعب الروسى فى شىء ، وأنهم بعيدون عن عواطف العامة الذين فقدوا كل أمل فى النظام القائم .

بيد أن هذه المقالات زادت من شهرته فى عصره أكثر من أى عمل آخر من أعماله الفنية ، وإن كانت تبدو لنا اليوم «كالغابة إذا أخذنا بروعتها ووجدنا فيها بعض مواطن الجمال فأننا نتعثر فى أحراشها المتشعبة ونتيه بين أدغالها »

كان من أثر نشر هذه المذكرات أن وجد له أصدقاء بعضهم

من طبقة لم يتعود الاتصال بها ، فقد تعرف إلى عظيم هو مربى الأمير الذى تولى فيما بعد العرش تحت اسم « اسكندر الثالث » وقد تقرب هذا الزعيم السياسى إلى المؤلف لما بينهما من نزعة تعضيد النظام القائم والكنيسة الرسمية ، فلما توثقت الصداقة بينهما دعاه لزيارة أبناء القيصر وقدمه إليهم ، ودعى « دستويفسكى » لمقابلة الأمير قسطنطين ابن عم القيصر وكان يميل للأدب ويقرض الشعر .

ومن الأصدقاء الذين كسبهم فى ذلك الوقت «أورست ميلر » وهو الذى اشترك مع صديقه القديم « ستراكوف » فى كتابة أول تاريخ لحياته ، واتصل أيضاً باستاذ للفلسفة فى الثالثة والعشرين من عمره هو « فلاديمير سولوفييف» وتوطدت بينهما الصداقة مع الفارق الكبير فى العمر ، وجرت بينهما أحاديث ومناقشات فى الفلسفة والدين ، كان لها تأثير فى حياة الشاب ظهرت فى كتاباته فيما بعد ، وفى حياة الشيخ ظهرت عند ما وضع روايته «الإخوة كارامازوف »

فى صيف ١٨٧٨ لم يستطع بسبب الحرب أن يسافر إلى إحدى مدن الاستشفاء الألمانية كما اعتاد فى السنوات الأخيرة ،

ولكنه ذهب مع أسرته إلى ضيعة أخ زوجتـــه فى ولاية « كوريسك » واستطاع أن يحج إلى مزرعة أبيه حيث كان يقضى أيام الصيف فى طفولته وحيث قتل أبوه ، ولم يكن رآها منذ أربعين سنة، ولعله وهو يتأمل تلك المواطن المحتشدة بالذكريات فكر لأول مرة فى موضوع رواية تقوم حوادثها على أب قتيل ، ثم عاد إلى بطرسبرج لتمضية الشتاء وتتابعت مقابلاته « لسولوفييف » حتى أنه حضر سلسلة المحاضرات التى ألقاها الفيلسوف الشاب فى ربيع سنة ١٨٧٨ وفى يونيو من تلك السنة زار الصديقان الدير المشهور فى اقليم « تولا » ومكثا يومين فى ضيافـة الأب « امبروزياس » وهو الذى اتخذه « دستويفسكى » صورة حية للأب « زوسيما » فى روايته « الإخوة كارامازوف » ونقل فى الرواية الأحاديث بينهما نقلا يكاد يكون حرفياً، ونجد صورة هذا الدير ورجاله تستغرق القسم الأول من روايته .

فى هذه الرحلة استطاع التوقف فى موسكو حيث اتفق مع « كاتكوف » على نشر روايته الجديدة بأجر هو ضعف ما كان ينقده من قبل ، وأخذ على أثر عودته فى كتابة روايته الشهيرة « الإخوة كارامازوف » التى ظلت فصولها تنشر تباعا فى صحيفة

« روسكى فزتنك » فى سنة ١٨٧٩ والجزء الأكبر من سنة ١٨٨٠ وظهرت فى آخر تلك السنة فى شكل كتاب .

تقوم هذه الرواية على أسرة مؤلفة من أب وثلاثة أخوة ، الأب رجل مستهتر بلغ سن الشيخوخة فلم يقلع عن لهو الشباب بل زاد إمعاناً فى لهوه ، فالخمر الذى كان يشربه فى شبابه لمجرد اللهو ، صار ضرورة لحياته لا يتركها ، والنساء اللاتى كن موضوع تسليته فى الشباب ، صرن فى شيخوخته رذيلة لا يستطيع الإقلاع عنها ، وكان هذا الرجل شراً على كل من اتصل به ، تزوج مرتين وعامل زوجتيه أسوأ معاملة ، وتوفيتا من تأثير الصدمات التى وجدتاها فى حياتهما ، وهو لا يحترم شيخوخته بل يعلن رذائله ويفخر بها ويعتبر القيود الاجتماعية نوعاً من الضعف ، ويعتبر الخضوع لتعاليم الديانة نوعاً من خوار العزيمة ، والأخوة الثلاثة رجال فيهم جانب الخير الكبير ولكنهم ورثوا صفات ذميمة من أبيهم فكبيرهم « دمترى » ابن زوجته الأولى سريع الغضب متهور ، يناصب أباه العداء علناً بسبب ميراث من والدته اغتصبه أبوه ، أما « إيفان » فهو مفكر وفيلسوف ملحد لا يهتم لشىء ، وصغيرهم « اليوشا » متدين فياض العاطفة شفيق بأهله ، وبين هؤلاء

جميعاً تقوم امرأة يحبها الأربعة ، أهى ملاك أم شيطان ؟ ذلك ما لا يمكن معرفته : فهى تبدو لكل منهم فى إحدى الصورتين حسب أهوائها وأهوائهم فى لحظتهم ، يحبها الأب حباً لا يعرفه غير الشيوخ وكأنما حياته عالقة بهـا ، ويحبها « ديمترى » حباً يتأرجح بين الوله والكراهية، ويحبها « إيفان » حباً صامتاً ساخراً، ويرتعش « اليوشا » لدى رؤيتها ولكنه لا يريد أن يعترف لنفسه بحبها ، هذا هو الصراع القائم بينهم جميعاً .

يهـدد « ديمترى » أباه فى كل لحظة بالقتل لأنه مغتصب أمواله وغريمه فى الحب وينظر « إيفان » إلى أبيه فى كراهية صامتة ، أما « اليوشا » فيحب الجميع ويحاول أن يحل اللغز الذى اكتنف عائلته ، وينتهى هذا النزاع القـائم فى نفوس هذه الأسرة بقتل « كارامازوف » الأب ، ويتهم ابنه الأكبر بقتله وينفى إلى « سيبريا » ويظهر فيما بعد أن قاتله هو خادم يثق به الأب ، اتخذه حارساً لنفسه من غضب ابنه الأكبر ، وتشبع هذا الخادم بروح « إيفان » وسخريته ، وظن أنه إنما ينفذ رغبة « إيفان » حين يقتل أباه .

هل توجد عائلة فيها كل هذا الجنون — جنون الكراهية ؟

ربما لا ، وقد يرمى « دستويفسكى » بأنه خيالى لأنه يخترع من المواقف ما لا تجد له مثيلاً فى العالم ، ولـكنه من أشد الـكتاب الواقعيين ، فالاخوة « كارامازوف » على ما بهم من شذوذ ، هم من أقوى الصور ظهوراً بل هم أحياء أكثر من الناس الذين يعيشون فى الحياة ، إن صح لنا أن نقول ذلك ، وهذه ميزة « دستويفسكى » وعظمته .

على أن للرواية جانباً آخر فهى تصف حياة « اليوشا » فى الدير حين تتلمذ فيه ثم أراد أن يكون قساً ، ولكن أستاذه الأب « زوسيما » أبى عليه ذلك ، وأمره أن يخرج إلى الحياة لأن مكانه فيها ، ولأن عمله أن يحاول إنقاذ أسرته من نفسها وصورة الأب « زوسيما» وقصة حياته ، هى من أنبل الصور التى رسمها « دستويفسكى » وفيها شرح واف لعقيدته فى الدين والخير والشر ، ويقينه بأن الخطيئة مهما عظمت فى أعيُن النـاس فهى مغفورة لدى الإلٓه الذى تخفى حكمته على بنى البشر .

كان لظهور الإخوة « كارامازوف » تباعًا وقع كبير لدى الأدباء ، وبلغ « دستويفسكى » بهذه الرواية أوج مجده .

١٤

مجـــد

زادت متاعب « دستويفسكى » فى السنوات الأخيرة من حياته وهو يعتلى سريعاً سلم الشهرة والناس يكتبون إليه فى موضوعات غريبة من حياتهم يستشيرونه فيها ، وهو يجيب هؤلاء جميعاً فلا يهمل رسالة تأتيه مهما كان موضوعها تافهاً ، فهذا اسرائيلى سجن لأنه سرق من أموال مصرف يعمل فيه لتدبير العلاج لخطيئته المصدورة ، وهو يجد فى فعلته ما يشبه فعلة « راسكولنيكوف » فيكتب إليه يسأله هل كان عمله خاطئاً أو صواباً ، وهذه فتاة تود أن تعرف رأيه وهى مقدمة على زواج من موسر وهاجرة فتى تحبه ، وهؤلاء طلبه يودون أن يعرفوا أكانوا مخطئين لاشتراكهم فى عراك أم كانوا على صواب ، ويتلقى الشيخ كل هذه الرسائل بصدر رحب ويرد عليها فى اسهاب ، ولم يكن المعجبون به قانعين بذلك ، بل هم يحجون إلى منزله ليتحدثوا إليه ،

فيفوز البعض منهم بمقابلته وهم الرجال والشبان ، وتحول « أنا » دون وصول النساء إليه !

كان يشعر بسرور عظيم وينشرح صدره لهذه الرسائل التى تأتيه من كل صوب ويقول إن الأجانب أحب من الأهل .

وقد أثرت فى أعصابه متاعب العمل لاسيما فى الليل والنوم نهاراً ، فكثيراً ما يبدو غاضباً محنقاً يلتمس أية وسيلة للعراك مع أهل بيته وأصدقائه ، وقد وصف صديقه « ستراكوف » هذا الغضب فقال « كان يبدو كالسحابة السوداء مقطب الوجه غاضباً فاذا أثير بكلمة انقض فى حملة شديدة على محادثه » .

وكثيراً ما كانت « أنا » موضع هذه الحملة لكنها تتقبلها فى ثغر باسم وفى هدوء يعيد اليه صوابه ، فينتقل معها من الغضب إلى الندم ويظهر لها ضروباً من الاعتذار ويبالغ فى ذلك ، مظهراً ما طبع عليه دائماً من رغبة الخضوع للنساء اللاتى يحببهن .

وفى سنة ١٨٧٩ حدث فى الحياة الأدبية بروسيا حادث كان له وقع كبير ، ذلك أن بلدية موسكو فكرت فى إقامة تمثال للشاعر « بوشكين » ورأت جمعية الأدب الروسى بتلك المدينة أن تنتهز فرصة إزاحة الستار عن هذا التمثال فتحتفل احتفالاً

رائعاً وتقيم مهرجاناً ، ينادى فيه بهذا الشاعرعلى أنه يمثل الفكرة الوطنية والنزعة السلافية الأصلية ، ولم يكن هذا الاحتفال ليجد تأييداً من المراجع العليا الرسمية ، بل نظرت إليه الحكومة بعين الريبة مع أن الفكرة ليست فيها أية نزعة حرة .

دعيت الجمعيات ودعى كبار الأدباء إلى الاشتراك فى هذا الاحتفال الذى قدر له يوم ٦ مايو موعداً ، وسافر «دستويفسكى» مع الوفود قاصداً موسكو ولكن بلغهم فى القطار وفاة القيصر وأجل الاحتفال إلى اليوم السادس من شهر يونيو ، وتردد فى العودة من موسكو إذ كان لا يزال يكتب القسم الأخير من «الإخوة كارامازوف» وقد تعود أن لا يفارق عائلته ، ولكنه وجد ترحاباً لم يكن ينتظره فقرر الإقامة فى موسكو وظهر أن «تلستوى» رفض الاشتراك فى هذا الاحتفال واصفاً إياه بأنه مهزلة ، وأن «جوتشاروف» من أهل بطرسبرج المقيمين الذين لا يمكن أن يهتموا لأى شىء يحدث فى موسكو ، فصار الميدان مفتوحاً أمام «تورجنيف» و «دستويفسكى» بلا منازع والثانى يمثل الفكرة السلافية المتعصبة ، فى حين أن منافسه «تورجنيف» لا يمثل

الوطنيين بل يمثل الرجال الذين تشربوا بالآداب الغربية .

اجتمعت هذه الظروف فجعلت من « دستويفسكى » أشهر شخصية أدبية فى هذا الحفل بعد « تورجنيف » فى رأى القائمين بالاحتفال .

وأقيمت الحفلات الكبيرة وكان « تورجنيف » يستشار فى البرنامج ، فى حين أن البرنامج فرض على «دستويفسكى» فرضاً.

وفى ٧ يونيو دعى « تورجنيف » إلى الكلام ولكنه تشبع بالآراء الأوربية وتعود الاقتصاد فى القول ، فذكر عن «بوشكين» أنه لا يستطيع اعتباره شاعراً وطنياً كما يمثل «شكسبير» و«راسين» و «جيته» الشعراء الوطنيين فى بلادهم ، وتكلم عن نبوغ « بوشكين » ولكنه فى الوقت ذاته أظهر العيوب التى يأخذها عليه رجال عصره فلم تثر خطبته حماسة فى قلوب السامعين ولم تعجب جمهوراً لا ينتظر غير التمجيد .

كان « دستويفسكى » أول الخطباء فى اليوم التالى فلم يتردد ولم يتئد ، بل جهر بأنه يعتبر « بوشكين » شاعر البلاد الوطنى وأنه أول من يمثل الروح الوطنية ولم يكتف بذلك بل قال

أن « بوشكين » إذا كان وطنياً خالصاً فهو شاعر دولى يستطيع أن يتذوق شعره أهل العالم جميعاً ، ثم تكلم عن الفكرة القائلة بأن روسيا هى الدولة الوحيدة القادرة على أن تبث روحاً جديدة فى المدنية فى أوروبا ، فلا يبقى فارق بين سلافى وغربى ، وأن روسيا لا تستطيع أن تبلغ هـذا المبلغ إلّا إذا تمسكت بفضائل العنصر الروسى .

قابل الناس هذا الخطاب بإعجاب لا نهـاية له ووصفه « ستراكوف » بقوله : أصغى كل إنسان إليه وكأنه لم يتكلم أحد من قبل عن « بوشكين » . ولم تقتصر الحماسة على أنصار السلافية بل أخذت تطغى على أنصار الفكرة الغربية ، وكان « دستويفسكى » من الحـكمة — والحـكمة ليست من عادته — بحيث أشار إشارة مديح إلى منافسه « تورجنيف » فقوطع بتصفيق حاد ، وقام « تورجنيف » ورمى إليه بقبلة من مكانه وليس أبرع فى وصف ماحدث من رسالة «دستويفسكى» نفسه :

« عند ما أعلنت فى خاتمة الخطبة أن الجنس البشرى متساو على اختلاف موطنه بلغ الحاضرون أقصى درجات الحماسة ولا أستطيع

أن أصف صياح الاستحسان عند ما أتممت كلامى ، كان الحاضرون يبكون و يتعانقون دون أن يعرف بعضهم البعض . و يقسمون على أن يكونوا فى المستقبل خيراً منهم فى الحاضر وأن يحبوا مواطنيهم بدلاً من كراهيتهم »

وقد أسرع إليه « تورجنيف » وارتمى على عنقه بينما أخذ الحاضرون يصيحون « هذا قديس ! هذا نبى »

هكذا بلغ «دستو يفسكى» فى هذا الحفل الجامع بخطاب ليس من أحسن ما كتبه ، ولا هو من خير أقواله شهرة ليس بعدها مطمع ، وكانت هذه الزيارة آخر زيارة لموسكو ثم عاد بعدها إلى عائلته فى «ستراياروسا» حيث انتقلوا فى سبتمبر إلى بطرسبرج .

فى نهاية تلك السنة وضع « دستو يفسكى » برنامجاً لمؤلفات يكتبها فى عشر سنوات وكتب فى تلك الأيام رسالة قال فيها إنه عازم على أن يعيش ويكتب مدة عشرين سنة أخرى وكانت جميع الدلائل تبعث على القول بأن نبوءته تتحقق فإن نوبات الصرع التى ابتلى بها أخذت تقل ولم يعد تأثيرها عليه كبيراً وذلك التعب فى الرئة الذى أصابه منذ ثمان سنوات اختفى

ولكن رطوبة الجو فى بطرسبرج والعادة التى درج عليها فى العمل ليلاً والنوم نهاراً ، أثرتا فى صحته وذكر الطبيب سراً لزوجته ذات مرة أنه ربما اتخذ مرض رئته طوراً خطيراً

انتهى من كتابة « الإخوة كارامازوف » فأعلن أنه سيستأنف نشر « مذكرات مؤلف » من أوائل سنة ١٨٨١

وفى يوم الأحد ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ زاره بعض الأصدقاء ليكلموه فى شأن حفلة يلقى فيها قصيدة من شعر « بوشكين » ولكنه أظهر عنتاً فى اختيار القصيدة وبدت عليه علائم الغضب وبعد ظهر ذلك اليوم زاره على ما يظهر بعض أهله ، ولعلهم تحدثوا إليه فى شأن الميراث المعروف مما أثار حنقه وغضبه ، فحدث له فى الليل أن انفجر شريان فى رئته ، وفى اليوم التالى استمر النزيف ، فأخذ القلم وكتب إلى « كاتكوف » يرجوه أن يرسل إليه ببقية مال له قائلاً « لعل هذا آخر طلب منى لك » وكان الأطباء وزوجته لا يظنون الخطر كبيراً ولكنه صمم على دعوة القس وأتم واجباته الدينية .

لما مات « دستويفسكى » بعد يومين من مرضه كانت أول

فكرة لدى العناصر الثورية هى أن يستولوا على جثته ليمزقوها اربا ، ولكنهم ما لبثوا أن هرعوا إلى داره خاشعين ، وحدث فى نفوسهم ذلك التحول غير المنتظر ، الذى كثيراً ما يحدث فى نفوس الشعوب لغير سبب ظاهر ، عندما تتحمس لفكرة وطنية ، فاجتمع رجال روسيا وشبيبتها من جميع الأحزاب والمشارب ، ليكرموا ذلك الرجل الذى — سواء كان على صواب أم مخطئاً — يشيد دائما بأرض الوطن